

## الإسلامية

### الفصل الثالث

#### العمراء الإسلامية في العصر الأموي

أولاً: نشأة العمارنة الإسلامية والأسس التي قامت عليها:

- شهد القرن الأول الهجري / السابع الميلادي على يد خلفاء بنى أمية ٤١ - ٦٦١هـ.
- ٧٥٠م / نشاطاً عمرانياً ونثاجاً معمارياً جديداً تجلّى فيه الأصالة والإبداع. وقد عبر هذا النشاط عن رغبة قادة الدولة العربية الإسلامية ومحاسمه للتثنيد وخلق فن جديد تتميز به الحضارة الإسلامية والعصر الجديد الذي تعشه شعوب المنطقة. كما عبر عن روح العصر الذي طبعه الدين الإسلامي بطابعه، وانصهرت في بوقته شعوب وثقافات وتقاليد عديدة ومتعددة عربية وأعجمية.<sup>١</sup>

لقد تمثلت في هذا النشاط إرادة حقيقة في التجديد والإبتكار وقدرة على تطوير العناصر القديمة المقتبسة وتحويرها وصياغتها من جديد واستخدامها بأسلوب مختلف يتفق مع الذوق الجديد الذي كونه هذا الدين في نفوس المسلمين مع القافة الإسلامية الجديدة. كما تمثلت في التوفيق بين العناصر المستوحاة من مختلف الأماكن لتكوين عمل فني جديد يميزه من يراه عن كل ما سبقه من أعمال فنية.<sup>٢</sup>

ويتميز مثل هذا العمل بالأصالة التي لا تتعارض مع الاستقادة من القرون الشائعة حينذاك كالبيزنطية والساسانية، فقد أخذ المسلمون الأوائل وخاصة في العصر الأموي عن هذه القرون وتأثروا بها، شأنهم في ذلك شأن أصحاب سائر الحضارات في الأخذ والعطاء والاستفادة من مظاهر الحضارات السابقة.

ورغم التشابه في الملامح العامة أو العناصر المعمارية بين المنشآت الإسلامية من جهة، وبين تلك التي كانت قائمة من قبل من جهة أخرى، فإننا حينما نتأمل أيًا من المنشآت الأموية نشعر بأننا أمام فن معماري جديد مختلف، ليس من صنع الرومان أو الفرس أو البيزنطيين. يتمثل في أسلوب استخدام العناصر المعمارية والزخرفية المقتبسة، وفي طريقة التعبير عن المواضيع. إنه إذن الفن الجديد الذي أحدث تكون شخصيته في هذا العصر المبكر، العصر الأموي ليتنتمي إلى الحضارة الإسلامية.<sup>٣</sup>

(١) *الشكل*

ويمكن تحليل شخصية هذا الفن من إمعان النظر بالمنشآت الأموية وتأمل صفاتها وخصائصها، ومحاولة اكتشاف العوامل التي ساعدت على تكوين هذه الشخصية وإعطائها من ثم خصائصها ومميزاتها. ويمكن إرجاعها إلى عوامل ثلاثة رئيسة هي:

- ١- يذهب، (شاري)، الأمويون العاصمة الأولى لدمشق، في اكتشاف الفن الإسلامي في حوض المتوسط، كتاب صادر عن مطبعة بلا حدود، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧، ص/٣/.
- ٢- زكي، (عبد الرحمن)، الفن الإسلامي، سلسلة كتابك، الكتاب رقم ١٦٤، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٥، ص/١٠٦-١٠٧.
- ٣- محفوظ، (سعاد ماهر)، العمارنة الإسلامية على مر العصور، دار البيان العربي، القاهرة، ١٩٨٩، ص/١٣-١٩.



العامل الروحي:

- يتمثل فيما أدخله الدين الإسلامي من تعاليم وأفكار وثقافة على حياة الناس، وما أحدثه من تربية وتهذيب للنفس البشرية انعكست على ما شيده الأمويون من منشآت.
  - بالذوق العام الناتج عن روح العصر، التي رسم معالمها التفاعل بين الثقافات في بلاد الشام وغيرها، وعاشها الحاكم والمهندس والفنان والمصانع، أولئك الذين يقفون وراء كل عمل فني.

### - العامل العملي:

- يتمثل في مواد البناء المألف استعمالها في بلاد الشام التي شيدت منها المنشآت الإسلامية. لأن مواد البناء لها دور في تحديد مميزات الفن المعماري واتجاهاته. ومن بين هذه المواد الحجارة والأجر واللبن والخشب، إضافة إلى الرخام والفسيفساء التي ربما كان مصدرها خارج الدولة الإسلامية.

اقتباس، مادة صالحة للتطوير والتعديل، للتكيف مع الأدوات والرغبات التي أتى بها العصر الجديد.

الأيدي العاملة المنفذة وما تملكه من خبرات فنية، وما ورثته من تقاليد، وهي على الغالب أيدٍ محلية أساسها أهل بلاد الشام الذين أنقذوا صناعة البناء وشغلوه، وربما يكون إلى جانبهم قلة جاءت من مصر تحمل معها التقاليد القبطية أو جاءت من تونس تحمل معها التقاليد الساسانية<sup>٤٣</sup>.

- عاما، الحاجة الى، الخلق، والإبداع:

- يتمثل في العبادة والشعائر الإسلامية، فالصلاة الجماعية مثلاً ونظامها عملت على قيام المساجد على نظم محدد، ومن ثم أدى إلى وجود أساس ثابتة في تصميم المساجد.

كما يتمثل في تطوير المساكن والقصور وفي الحاجة إلى تشييد مدن إسلامية جديدة، فجاجة الخلافاء إلى منازل تقام في البادية، تحقق لهم الاستجمام والتحرر من جو المدينة الصارم أدت إلى ظهور قصور الباية الحافظة بمظاهر النعيم والترف كالحمامات والحدائق وقاعات السمر.

ولتبية هذه الحاجات كلها لجأ المهندس والفنان إلى الاقتباس والاصطفاء من الفنون السابقة وتطوير عناصرها، والمزج بين ما يختاره منها، وتحقيق الانسجام والتوافق فيما بينها. إلا أنه استبعد مواضيع لا تناسب وروح العصر واستعراض عنها بمواضيع أكثر ملائمة. ولا بد أن يؤدي كل ذلك إلى الابتكار وخلق الفن الجديد.<sup>٤</sup>

ثانياً.. تحديد المساحات، وبناء المساجد والقصور:

اهتم الأميون بتجديد المساجد التي أ始建ت أيام الرسول (ص) والخلفاء ارشادين، لأن المسجد في ذلك العصر لم يعد مركز عبادة فقط وإنما صار مركزاً للاجتماع واتخاذ القرارات التي تهم المجتمع الإسلامي كما كان على كل أمير أن يقصد الجامع حين يوليه الخلافة ويعطى سياساته الجديدة من على

<sup>٤٣</sup> - شامي، تطور تاريخ العرب، ص: ٢٤.

- ٤- الريحاوي، عبد القادر، العمارة في الحضارة الإسلامية، مطبوع جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية،

١٤-٢٥/ص/١٩٩٠/١٦

متبرها وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدي يصبح أميراً لها العصر وكانت كتب الخليفة وأوامره تقرأ على الناس في المساجد.

كما مال كثير من الحكام بعد الفتوح التي حرر بها العرب المسلمين بلاد الشام وال العراق، وشمال أفريقيا على حياة الترف والنعيم، وتقليد غيرهم باتخاذ القصور المنيفة، واقتضاء الجواري والاثاث الفاخر، ولقد ظهر في الحجاز في عصر الخلفاء الراشدين قصور شيدت من طبقتين أو ثلاثة<sup>٤٠</sup>.

وفي العصر الأموي استعمل الخليفة والأمراء بعض القصور الرومانية التي كانت في دمشق وغيرها، كما بناوا قصوراً جديدة اندثرت جميعها، وذلك أن بناءها كان غالباً من الطين أو التراب المشوي، فلم تستطع أن تقاوم عوامل الطبيعة وبينها دمشق الربطية.

أضف إلى ذلك أن القصور عكس المساجد تبدمت لأنها تخص أشخاصاً تذهب بذاتهم، ويحل بها ما يحل بأصحابها من النقم، بينما تبقى المساجد لأنها تخص الناس جميعاً، والقصور في المدن أدعى للزوال والاندثار من قصور الbadia نظراً لحادية الناس في المدن إلى الأرض حيث يقومون بإعمارها وتتجدد مبارياتها من حين آخر.

فقد ذكروا أن معاوية اتخذ قصر الخضراء مقراً للخلافة الأموية بدمشق، وكان موقعه إلى جوار الجامع الأموي عند جداره الجنوبي، وسمى بعدها دار الإمارة لأن الخلفاء الأمويين توارثوه من بعده، ويدرك ابن عساكر (أن الخضراء التي فيها قصر معاوية هو من بناء أهل الجاهلية، من بناء قد بنوه)<sup>٤١</sup>، ولعل معاوية رمه وأصابعه إليه ثم سكه منذ ولادته على الشام، وتلتها النار هذا القصر أواخر عصر الفاطميين<sup>٤٢</sup>، وبادت الخضراء وصارت كوماً من تراب بعدما كانت في غاية الإحكام والإتقان، وطيب الغاء، ونزعها المجلس، وحسن المنظر، وبقيت المنطقة التي كان فيها القصر تحمل اسم الخضراء، وأقيم على جزء منها عام ١٧٤٩ قصر العظم الذي مازال حتى الآن مستعملاً متحفًا للتراث الشعبي.<sup>٤٣</sup>

وكذلك فإن دور الإمارة التي شيدتها الولادة في البصرة والكوفة اندثرت ولم يبقى لها أثر.

وبالرغم من عدم وجود قصور للأمويين في المدن ولا حتى في العاصمة دمشق، فإنه يمكن القول اعتماداً على ما تورده الكتب والروايات التاريخية بالإضافة إلى ما توصل إليه علماء الآثار، أن القصور الأموية انتشرت في بلاد الشام انتشاراً واسعاً، ولم تكن مقتصرة على منطقة بعينها بل وجدت ممتدة من جنوب الأردن إلى الجزيرة الفراتية شمالاً ومن جوف الصحراء شرقاً حتى ساحل البحر المتوسط غرباً، إذ وجد للخلفاء والأمراء قصوراً في المنطقة الشمالية، والشمالية الشرقية لخليج العقبة.

والحديري بالذكر أنه شيد الأمويون قصوراً في الbadia انسجاماً مع الهوالية المفضلة لدى الأمويين وهي الصيد، أضف لذلك مراقبة تحركات البدو عن كثب ونشر الأمن والاستقرار في الbadia.

<sup>٤٠</sup> - الرفاعي، الإسلام في حضارته، ص ٤٠٩.

<sup>٤١</sup> - ابن عساكر، تاريخ دمشق، ١٣٨٢.

<sup>٤٢</sup> - ابن كثير، البداية والنهاية، ٩٢/٩٧.

<sup>٤٣</sup> - أبو خليل، الحضارة، ص ٥٦٨.

تغيره الفرنج). وكل ما أشار إليه من أعمال الصليبيين هو تشييد القوس شمالي قبة الصخرة ووضع بعض الصور حول الصخرة.

أما الذين حديثنا عن أحوال الأقصى بعد تحريره عام ١١٨٣هـ / ١١٨٧م، أمثال الأصفهاني كاتب صلاح الدين، لم يصفوا لنا كيف كان الأقصى وقتذاك، ولم يذكروا عدد بلاطاته، وإنما أشاروا إلى ما حدثه الصليبيون من تغيير في معلم الأقصى وقبة الصخرة، وإلى قيام السلطان صلاح الدين بازالة آثارهم، وهدم دار وكنيسة أقاموها غربي الأقصى. وتدل هذه الإشارة العابرة على أن الأقصى لم يكن يتصل من هذه الجهة بالسور، وإنما كانت هناك فسحة أقام عليها الفرنج كنيسة وداراً. ولعل هذه الفسحة نتجت بعد انهدام الجانب الغربي من الأقصى في العصر العباسي.

وكان العمل المهم الذي تم في عهد السلطان صلاح الدين إنشاء محراب من الرخام. وهو المحراب الكبير الذي ما زال موجوداً، يحمل تاريخ إنشائه عام ١١٧٣هـ / ١١٨٣م. وكذلك المنبر الخشبي المشهور الذي تم صنعه أيام السلطان نور الدين محمود بن زنكي في حلب وأمر صلاح الدين بجلبه إلى القدس وبعد من أحسن منابر الإسلام، وقد تناوله الحريق مؤخراً حين أشعل الصهاينة اليهود النار في المسجد في أب من عام ٩٧٩م / ١٤٦٥هـ وجدد كذلك في العصر الأيوبي الرواق الذي ينتمي الواجهة الشمالية للمسجد وعلى الأرجح أيام السلطان عيسى بن الملك العادل أبي بكر في عام ١٢١٩هـ / ١٤٠٣م.<sup>٧٦</sup>

(الشكل ٨، ٩)

#### ٤- المسجد الأموي الكبير في دمشق:

##### ♦ تاريخ الجامع:

تم فتح دمشق وتحريرها من الحكم البيزنطي عام ١٤هـ / ٦٣٥م، ووقع اختيار المسلمين على الأرض المخصصة للعبادة منذ آلاف السنين، ليقيموا عليها عبادتهم، فقد أقيمت عليها في العصر الآرامي معبد (حدد)، ثم معبد (جوبيتر) في العصر الروماني، وكان هذا الأخير مزوداً بسور خارجي بلغت أبعاده (٣٨٠ × ٣٠م)، ما تزال أجزاء منه باقية بين أسواق دمشق وأحيائها المحيطة بالمسجد.

أما سور الداخلي فقد غدا سوراً لجامع (بني أمية)، وكان المعبد الذي تحول إلى كنيسة للمسيحيين على اسم النبي (إحيى عليه السلام) (روحنا المعمدان) مؤلفاً من باحة سماوية يتوسطها هيكل الإلهة (سيلا)، وتحيط بأسواره من الداخل أروقة على شاكلة معابد الرومان المشيدة في المشرق، كمعبد الإله (بل) في تدمر.

وقد اقتسم المسلمون عند الفتح هذا المعبد الكبير مع المسيحيين، وأخذوا نصفه الشرقي؛ ليقيموا عليه مسجد الصحابة، وتركوا للمسيحيين القسم الغربي الذي كان يحوي الكنيسة التي أقيمت داخل المعبد في أيام الإمبراطور (تيودوسيوس) في أواخر القرن الرابع الميلادي، كما رُجح بعد دراسة النصوص

٧٦- أبو شامة، (شهاب الدين المقتصي ت ٦٦٥هـ / ١٢٤٨م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق عزة العطار، مطبعة وادي النيل، القاهرة، ١٩٤٧، ص ١٠٧.

التاريخية واستقرارها، وصار من الأخطاء الشائعة اعتقاد أن المسلمين اقتسموا الكنيسة ذاتها مع المسيحيين ، مما يستتبع ممارسة الطرفين العبادة تحت سقف واحد، وهذا لا يقبله الواقع، وقد تبين أن مبعث هذا الاعتقاد الخاطئ أن الرواة والمؤرخين الذين أشاروا إلى هذا الموضوع لم يميزوا بين (معبد) و(كنيسة)، فقلالوا باقتسام الكنيسة، وهو يقصدون اقتسام المعبد، وفعلاً أخذ المسلمون النصف الشرقي للمعبد، وأقاموا عليه مسجدهم، وتركوا الكنيسة القائمة في القسم الغربي للمسحيين، يؤيد هذا (المهليبي)، إذ قال: (وبنى المسلمون الجامع إلى جانب كنيسة يوحنا)<sup>77</sup>، واستمرت الحال على هذا الأمر قرابة /٧٠/ عاماً، إلى أن تمكّن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك من تشييد مسجد الجامع.

وتشير الروايات التاريخية إلى قيام الخليفة الوليد بهدم كل ما كان من منشآت سابقة، والاحتفاظ بسور المعبد؛ ليُشيد داخله جامعه وفق تصميم جديد مبتكر يتلاءم مع شعائر الدين الإسلامي وأغراض الحياة العامة، ويليق بعظمة الدولة الإسلامية وأهمية العاصمة دمشق، واستغرق تشييد الجامع وزخرفته خلافة الوليد كلها، وظهر جامع (بني أمية) بعد /١٠/ سنوات ثورة على البساطة والتلشف، وانطلاقه جديدة في الفن والعمارة، ووضع بتشييده مبادئ هندسة الحوامض الكبرى التي شيدت في العالم الإسلامي، وقد عبر الوليد عن هذه الأصالة بقول له تناقله الرواية، هو: (أني أريد أن أبني مسجداً لم يبنَ من مضى قبلي، ولا يكون بعدي، مثله)<sup>78</sup>.

كان الوليد بن عبد الملك من أعظم الخلفاء الأمويين أثراً في العمارة والفنون العربية، ويكتفي هذا الخليفة فخراً أنه باني المسجد الأموي الكبير في دمشق الذي يُعد من أبدع العماير الأموية، بل من أهم الآثار الإسلامية والعربية التي ما زالت باقية في دمشق، وقد شيد بين عامي ٩٦-٨٨هـ /٧١٤م/، واستقدم له الصناع والعمال من مختلف البلاد الإسلامية، بل رُوي أنه كتب إلى ملك الروم يطلب إليه أن يرسل إليه (٢٠٠) صانع من بلاده، وأن ملك الروم أجابه إلى ما طلب<sup>79</sup>، وما زال جامع دمشق حتى اليوم قائماً ومحظوظاً بمخطظه الأصيل ومعظم عناصره المعمارية والزخرفية أكثر من أي مسجد آخر في العالم الإسلامي، رغم ما تعرض له في تاريخه الطويل من أحداث الحرائق والزلزال.

77 - المهليبي، (الحسن) بق، ٤ هـ /١٠١م/، المسالك والمعالم، قطعة من المخطوط نشرها المنجد في مجلة معهد المخطوطات، المجلد ٤، ١٩٥٨م، ص/٥٠.

78 - ابن عساكر، (علي بن الحسين) ٥٧١هـ /١١٥٧م/، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق، ١٩٦٣م، المجلد ١، ص/١٠٤.

79 - مرسي، (إيناس بحري أحمد)، فن العمارة العربية وأشهر معالمها (دراسة)، مراجعة وتدقيق أمينة الصباح، دار سعاد الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، ط١، ٢٠٠١م، ص/٨١-٨٢.

## ♦ نفقات بناء الجامع الأموي:

دُهش الناس بعظمة المسجد، ولفت انتباهم في بنائه وتزويقه وعظم مؤونته<sup>٨٠</sup>، فقد قيل إن أفق على هذا المسجد خراج الدولة ٧/٧ سنين، وقيل إن حساب ما أفق على المسجد حمل على (الوليد) أفق على هذا المسجد خراج الدولة ٧/٧ سنين، وقيل إن حساب ما أفق على المسجد حمل على (١٨) بغيره، والحق أن النفقات الكثيرة التي قيل إنها أفق على بناء الجامع الأموي<sup>٨١</sup> لا تكاد تذكر بجانب هذا الفخر العظيم للعرب ولحضارتهم السامية<sup>٨٢</sup>، فقد سمع لأحد سفراء اليونان أن يدخل المسجد، ولما شاهده التفت إلى رفقاء، وقال لهم: (لقد قلت لأعضاء مجلس الشيوخ في بلادي أن سلطان العرب سيزور عما قريب، أما الآن وأنا أرى كيف يشيدون عمارتهم، تخد علمت علم اليقين أن سلطانهم سيدوم أحباباً طويلة)<sup>٨٣</sup>، وقد صدق الخليفة الوليد عندما وقف أمام أهل دمشق، وقال لهم: (أنتم تفخرون على تدبّي بخلاص أربع: طيب هو انكم، وعذوبة مائكم، ونضاره فاكهتكم، ونظافه حسانتكم، فأحببت أن يكون مسجداًكم هي الخامسة)، وقد كان<sup>٨٤</sup>.

## ♦ المخطط والوصف «سعاري»:

حا: مخطط المسجد كالمخطط الذي أشتئت عليه المساجد الإسلامية وقام على تنظيم فراغ

مكشوف ضمن بناء مشيد ولا ريب أنه مستوحى من مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة الجامع مستطيل تبلغ أبعاده (١٥٦×٩٧م)، ويحتل الحرم الجانب القبلي، ويليه في الشمال صحن مستطيل تحيط به الأروقة من ثلاثة جهات الشمالية والغربية والشرقية، وفيما يأتي وصف لآقسام الجامع: (الشكل ١٠)

## ♦ السور والأبواب:

للجامع سور مرتفع مشيد بالحجر المنحوت، هو سور المعبد الروماني في الأصل، جُددت أقسام منه في العصور الإسلامية المختلفة، وكان السور مزوداً في أركانه بأبراج مربعة مؤلفة من عدة طبقات يصعد إليها بدرج من الداخل، وقد استُخدمت هذه الأبراج في صدر الإسلام للأذان، بقي (٢) منها في الجهة الجنوبية، أقيمت عليهما مذنبتان.

أما الأبواب فهناك (٣) مفتوحة في الشرق والغرب والشمال، تؤدي إلى الصحن عبر البوابات والأروقة، ورابع يؤدي إلى الحرم مباشرةً، في الجانب الغربي من الجدار الجنوبي، وأهم هذه الأبواب من

٨١- زكي، (عبد الرحمن)، الفن الإسلامي، سلسلة كتابك، الكتاب رقم ١٦٤/١، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٥/١٤).

٨٢- زكي، الفن الإسلامي، ص/١٥٩.

٨٣- دبورانت، (ول)، قصة الحضارة، (عصر الإيمان)، ترجمة محمد بدран، الجزء الثاني من المجلد الرابع، ص/١٥٩/٤٧٨، قنديل، (محمد المنسي)، عندما تصلي الأحجار (دمشق ومسجدها الأموي)، مجلة العربي، العدد ٤٧٨/٤، الكويت، ١٩٩٨/٥٥٠).

٨٤- محمد، (سعاد ماهر)، العمارة الإسلامية على مر العصور، دار البيان العربي، القاهرة، ١٩٨٩/١، ج ٢، ص/٢٠٣.

الناحية المعمارية للباب: الغربي باب البريد، والشرقي باب جبرون، وكل منها يتألف من (٣) فتحات مستطيلة مسقوفة بساكن، الوسطى واسعة يعلوها عقد عائق دائري (الشكل ١٤)، أما الباب الشمالي باب الفراديس ففتحة واحدة واسعة، ويُخفف الحمل عن ساكن الباب (٢) من العقود العائقة المجزوءة.

#### • الصحن والأروقة:

يحتل الصحن رقعة مستطيلة تبلغ أبعادها (١٣٢ × ٥٠ م)، يحيط به من ثلات جهاته الشرقية والغربية والشمالية رواق عرضه حوالي (١٠ م)، يرتفع قليلاً عن مستوى الصحن، ويتألف الرواق من صفين من القنطر المفتوحة على الصحن، محمولة على الأعمدة والعضائد، إذ يتراوح علوهان من عضادة، وهكذا، والأعمدة قطعة واحدة من الحجر الكلسي الصلب، أو الغرانيت القديم، تتوجها تيجان من طراز كورنثي، أما العضائد فبنية من الحجر، ويعلو القنطر طابق آخر من القنطر الصغيرة، اثنان فوق كل قنطرة كبيرة، محمولة على عضائد، بين كل اثنين عمود صغير له تاج كورنثي، وللرواق سقف مستوي باطن من الخشب وسطحه مصفح بالرصاص.

وتشاهد في الصحن (٣) قباب صغيرة، إحداها في الغرب، وهي المشهورة بـ (قبة الخزنة)، وهي تمثل غرفة مئونة الوجه في أحد باب صغير، محمولة على (٨) أعمدة معروضة في البلاط من دون قواعد، لكنها تحفظ بتجانها. الكورنثية الجميلة وقد بنيت من الحجر والأجر وكسئت بالقسيس، ويقال إن خزينة الدولة وثائق الوقف وحساباته كانت تحفظ داخلها، وعليها أقفال الحديد<sup>٨٥</sup>، وينسب المؤرخون القدماء بناءها إلى (الفضل بن صالح العباسي)<sup>٨٦</sup>، وقبة الثانية تقع شرق الصحن تدعى (قبة الساعات)، وقد يُعرفت بـ (قبة زين العابدين)، وهي محمولة أيضاً على (٨) أعمدة من الرخام ذات تيجان من طراز بيزنطي بعضها على شكل السلة، ويعلو الأعمدة إطار من الخشب في باطن القبة على شكل مثمن نقشت عليه زخارف نباتية يدل أسلوبها على أنها من العصر الأيوبي.

وتتوسط الصحن قبة بركة للوضوء مربعة الشكل، كان يعلوها قبل عدة سنوات قبة على قاعدة مربعة لها في كل ضلع قنطرتان، وتذكر الروايات أنها جُددت في عهد الوالي العثماني (عثمان باشا)، أي منذ حوالي قرن؛ لذا أطلق عليها (قبة العثمانية)، وعرفت قديماً بـ (الشادروان)، وهناك على مسافة من البركة من الجهةين غرس عمودان في الصحن، في رأسيهما ما يشبه الثريا من البرونز المخمر، عُرفاً قديماً بـ (عمودي الإسراج)، أي الإنارة.

كانت أرض الصحن وأروقتها مبلطة بقصوص القسيس الحجري، ثم تغيرت معالمها، كما ارتفع مستواها نتيجة أعمال التجديد، وقد تم التعرف على المستوى الأصلي للصحن والأروقة بعد إجراء أسبار

-٨٥ أبو البقاء، (عبد الله البدري المصري)، ترجمة الآثار في محسن الشام، القاهرة، ١٣٨٤هـ / ٤١ص.

-٨٦ ابن تغري بردي، (جمال الدين يوسف) / ١٤٧٠هـ / ٤٨٧٤م، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ٢، وزارة الثقافة، مصر، ص ١١.

عدة دراسات عليها عام ١٩٥٩م، ثم تم تجديد البلاط وفق المستوى الأصلي الذي تم التوصل إلى معرفته، وقد احتفظ بقطعة من بلاط الفسيفساء القديم في الرواق دليلاً على المستوى الأصلي.<sup>٧٧</sup>

#### • الحرم:

تبليغ أبعاده (١٣٦×٣٧م)، ويتألف من (٣) أروقة، أو بلاطات، موازية للقبلة، يمتد بينها صفان من القنطر مكونة من أعمدة تحمل عقوداً نصف دائريّة، فوقها عدد مضاعف من القنطر الصغيرة؛ لزيادة ارتفاع السقف كما في قنطر الصحن. الشكل (١١)

وتشتمل مع البلاطات الثلاث هذه واحدة تمتد من الصحن إلى المحراب، تسمىها (المجاز القاطع)، وهي أكثر اتساعاً وارتفاعاً من البلاطات الأخرى، تتوسطها قبة يقارب ارتفاعها (٣٠م)، محمولة على عصائد ضخمة، وقد جددت رقبة القبة بعد الحريق الأخير تجديداً معايراً لوضعها الأصلي، فتغيرت أشكال نوافذها عن الأصل، ولواجهة المجاز المطلة على الصحن باب فخم مؤلف من (٣) طاقات أصغر منها ضمن عقد كبير يحيط بها، ويعلو هذه البوابة الضخمة اتساعاً من الجانبين، فرقها (٣) طاقات أصغر منها ضمن عقد كبير يحيط بها، ويعلو هذه البوابة الضخمة جبهة مثلكة تشبه جبهة المعابد المأولفة في العمارة الكلاسيكية.

وعلى جانبي البوابة برجان صغيران على شكل مربع، تتوজّهُما قبة صغيرة، وكانت واجهة الحرم على شكلة أروقة الصحن تماماً من حيث تصميّمها وعناصرها، لكنها جددت في العصر السلاجوفي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ بسبب الحريق، وأصبحت بعد التجديد خالية من الأعمدة، أي مكونة من عصائد فقط.

أما جدار الحرم الجنوبي فيوجد في وسطه آثار الباب القديم (باب المعبد) ثلاثي الفتحات، وقد احتل المحراب الفتحة "غربيّة منه، وسُدّت الفتحة الوسطى، بينما استُخدمت الفتحة الشرقيّة للدخول إلى المسجد من قصر الخضراء في العصر الأموي، ثم سُدّت في عصر لاحق.

وهناك باب آخر في النصف الغربي من الجدار، فتح عند تشييد المسجد، وُعرف بـ(باب الزيادة)، لأنّه في القسم الذي ضمه الوليد إلى المسجد الأول، وهو الآن الباب الوحيد الذي يُؤدي مباشرة إلى الحرم، وداخل الحرم في الجانب الشرقي ضريح النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) على شكل قبة من الرخام، جددت بعد الحريق الأخير، وقد كانت من الخشب، وتذكر الروايات التاريخية أنه عُثر على رأسه مدفوناً عند حفر الأساس، فأمر الخليفة الوليد بأن يحافظ عليه، ويوضع فوقه عمود مميز.

ويستمد الحرم نوره من نوافذ مفتوحة في جدرانه الكبيرتين الجنوبي والشمالي، وعددتها (٢٢) في كل جدار، تضاف إليها نوافذ المجاز القاطع المفتوحة في واجهتيه وجدرانه الجانبين، ونوافذ القبة.

وكانت هذه النوافذ مزودة بشمسيات من الجص المشق بالزجاج الملون، ومزخرفة بأشكال بنائية وهندسية، أكثر الشعرا ووالرحاون من وصفها، وقد ميز (ابن جبير) بين نوافذ الجدار الشمالي وتلك التي

٧٧- الريحاوي، (عبد القادر)، إسهام في دراسة الجامع الأموي (الصحن والأروقة)، مجلة الدراسات الأثرية السورية، المجلد ١٣، دمشق، ١٩٦٣م، ص/٥٣-٧٠.

في الجدار الجنوبي، فوصف الأولى بقوله: «بَيْسِيَّ جَصِيَّةٌ مُخْرَمَةٌ كُلُّهَا عَلَى هَيْثَةِ الشَّمْسِيَّاتِ، فَتُبَصِّرُ الْعَيْنَ شَعَاعَ الشَّمْسِ»، وانعكاسه إلى كل لون فيها، حتى ترى الأ بصار منه أشعة ملونة، يتصل ذلك بجداره القبلي<sup>٨٨</sup>.

• المشاهد: سعاد رياض

عند تأمل مخطط الجامع يتثنى في جانبيه الشرقي والغربي<sup>٤</sup> فاعات كبيرة مستطيلة، أطلق عليها اسم (المشاهد) منذ القديم، ونسبة كل منها إلى واحد من الخلفاء الراشدين: الجنوبي الشرقي (مشهد أبي بكر)، والجنوبي الغربي (مشهد عمر) – وكانت فيه مخطوطة كتاب (تاريخ الأطباء) الطبيب (ابن أبي أصيبيعة) المتوفى سنة ١٢٦٩هـ/١٢٦٩م<sup>٨٩</sup> – وهو على طرفى الحرم، أما الشمالي الغربي فدعى (مشهد عثمان)، بينما دعى الشمالي الشرقي (مشهد علي)، ثم عُرف بـ(مشهد زين العابدين)، وأقيم خلفه من الشرق (مشهد الحسين)، ويقال إن رأس الحسين مدفون فيه، وقد تغيرت أسماء هذه المشاهد في خلال الزمن، واستُخدمت في أغراض شتى، كالتدريس والصلة والاجتماعات وخزائن الكتب<sup>٩٠</sup>.

وقد أقيمت عشرات المدارس حول الجامع، وكانت حلقات الدرس تتوزع في أنحائه، قال ابن عساكر: (وكان عند كل عمود من أعمدة جامع دمشق شيخ وعليه الناس يكتبون العلم)<sup>٩١</sup>.

#### • قبة النسر:

هي تلك القبة التي تُعطي الجزء الأوسط من المجاز الذي يتوسط الجامع الأموي، وقد كان بناء هذه القبة أصعب جزء في الجامع، فقد أرادها الوليد عالية ومتسرعةً، كي يراها الزائرون من بعيد، فيعرفوا أن دمشق تحولت إلى عاصمة إسلامية، وعندما رفعها البناءون على الأعمدة سقطت وتهدمت تماماً، وأصاب الكتاب الخليفة الأموي حين جاء إليه بناء شامي، ووقف أمامه باعتدال، وقال: (أنا أرفعها، ولكن بشطر)، قال الخليفة: (وما هو؟)، قال البناء: (أن تُعطوني عهداً لا يتدخل أحد في عملي، ولا يمد أحد يديه عليها غيري)، فقال الخليفة: (لك ذلك)، وبدأ الرجل فحفر حتى بلغ الماء الموجود في جوف الأرض، ثم وضع الأساس حجراً فوق حجر، وغطي كل شيء بالحصى، ثم اخنى، وعيثا حاول الخليفة وجذوه البحث عنه مدة عام كامل، ورغم هذا برأ الخليفة بوعده، فلم يدع أحد يقترب من البناء، أو يرفع الحصى،

٨٨- ابن جبير، (الكتاني الأنطاسي ت ٦١٤هـ/١١٩٩م)، الرحلة، تحقيق د. حسين نصار، دار الطباعة، مصر، ١٩٥٥، ص ٢٤٨.

٨٩- ابن كثير، (عماد الدين بن إسماعيل ت ٧٧٤هـ/١٣٥٤م)، البداية والنهاية، ج ١٣، مطبعة العادة، مصر، ١٩٣٢، ص ٢٥٧.

٩٠- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٦١.

٩١- ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلد ١، ص ٦٩.

ثم ظهر الرجل فجأة، فقال له الوليد: (ما الذي دعاك للاختفاء؟)، فأجاب: (خرج معى حتى أريك التسبب)، وسار الوليد معه، والناس خلفهما، وكشف الحصى، فإذا بالأساس قد غار قليلاً في جوف الأرض، فقال الرجل: (كان هذا هو سبب سقوط القبة في المرة الأولى، الآن ثبت الأساس، فابنوا، فإنها لا تهوي إن شاء الله)، وتواصل البناء، وارتقت قبة النسر عالياً، وما زالت<sup>٩١</sup>، ومن ثم ليس في جامع دمشق قباب، إلا قبة النسر، وسميت كذلك لأن القدماء شبّهوا الحرم بالنسر، القبة رأسه، والمجاز جسمه، والبلغات الممتدة على جانبيه أجنحةه، والقبة بوضعها الحاصر لا تشبه الأصل القديم بعناصره؛ لأن معظمها جُدد بعد الحريق الأخير عام ١٤٣٠هـ - ١٨٩٢م<sup>٩٢</sup>.

#### • المآذن:

إن الأبراج التي كانت قائمة في أربعة أركان المعبد كانت هي المآذن الأولى التي بناها الوليد ابن عبد الملك، وكانت أنموذجية لدى أشياها فيما بعد في شمال أفريقيا، فهي تنتهي بشُرفة وغرفنة مضلعة ذات باب، تعلوها قبة لم يعد لها وجود، ويؤكد ذلك أن الوليد أمر بإنشاء (٤) مآذن في زوايا مسجد الرسول ﷺ في المدينة المنورة<sup>٩٣</sup>.

والمئذنة الأموية سواء أكانت واحدة من مجموعة أربع المآذن الرباعية، أو كانت مئذنة العروس، هي أول المآذن التي أضيفت إلى المسجد، وعندها أخذت المساجد الجديدة في مصر والمغرب العربي وفي الأندلس شكلها<sup>٩٤</sup>.

وحاليًا في الجامع اليوم (٣) مآذن، اثنان منها تحتلان الركينين الجنوبيين الشرقي والغربي، تدعى الشرقية (مئذنة عيسى أو المئذنة البيضاء)، والغربية (المئذنة الغربية وتدعى مئذنة قايتباي)، أما الثالثة فتدعى (مئذنة العروس)، ومكانها إلى جانب الباب الشمالي (باب الفرداديس)، وهي على هيئة برج مربع، ويرجح أن تكون من أيام الخليفة الوليد، لكن قسمها العلوي مجدد في العصر العثماني، وقسمها الأوسط مجدد في العصر الأيوبي، بعد حريق سنة ١٤٧٤هـ / ١٧٥٠م، كما تذكر الروايات التاريخية، وتدل العناصر المعمارية على ما يؤكد ذلك أيضًا. أما مئذنتنا الحرم فقد أقيمت فوق برجي المعبد الروماني.

ويبدو من دراسة النصوص التاريخية أن الجامع كان مزوداً بمئذنة واحدة هي مئذنة العروس، إضافة إلى استخدام الأبراج الأربع للآذان منذ الفتح، واستمر ذلك إلى عهد (المسعودي) المتوفى سنة ٩٥٧هـ / ٥٩٥م؛ لأنه قال: (والصوماع فيه لم تُغير، وهي منائر الآذان إلى هذا الوقت)<sup>٩٥</sup>، وأضاف

٩٢- محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص ١٥/١٥.

٩٣- الريحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والقافي، ج ١، ص ١٢٤/.

٩٤- البهنسى، (غيف)، الجامع الأموي الكبير، دار طлас، دمشق، ١٩٨٨، ص ٧٧/.

٩٥- محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص ١٥/٢١٥.

٩٦- المسعودي، (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي ت ٣٤٦هـ / ٩٣٩م)، مروج الذهب، تحقيق محي الدين عبد الحميد، ج ٢، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٨، ص ٢٥٩/.

(المقدسي): (مئذنة العروس محدثة)، ولعله يقصد أنها أحدثت في عهد الوليد، وليس من عهد أميراج المعبود الروماني الأربعة.<sup>٩٧</sup>

♦ العناصر المعمارية:

شيد الجامع بالحجر الجيد النحت، وهو تقليد عريق في عمارة بلاد الشام؛ إذ إن مقالعه متوفرة، وشيدت منه العناصر المعمارية الأساسية سواء الجدران والعضائد والأعمدة.

وهناك الغرائب، وقد نحت منه الأعمدة أيضاً، وهي من قطعة واحدة، فوقها تيجان من طراز كورنثي، معاد استعمالها على الأرجح، وهناك أعمدة رخامية، ولا سيما الصغيرة منها.

أما عقود القناطر المحمولة على العضائد والأعمدة فحجرية شكلها نصف دائري، بعضها مدبوب قليلاً، وبعضها متباوز قليلاً أو حدوبي، ويوجد عنصر مساعد في تركيب القناطر مهمته زيادة ارتفاعها هو حجر بين تاج العمود ورجل العقد على هيئة هرم مقلوب يمكن تسميته (الواسدة).

ويعتمد التسقيف على صفوف القناطر التي تم رصفيها، ويزيد في ارتفاع السقف وجود طابق ثان من القناطر الصغيرة، اثنان فوق كل قنطرة سفلية، ويكون السقف من هيكل خشبي على شكل جملون فوق كل بلاطة، تكسوه من السطح صفائح الرصاص، ومبطن من الداخل بالخشب المزخرف.<sup>٩٨</sup>

♦ العناصر الزخرفية: اعتمد بناء الجامع في زخرفته وتجميله على عنصرين هما:

- الرخام:

استخدم في كسوة الجدران والعضائد؛ إذ يلتف وزرة ارتفاعها قرابة (٤) أمتار، وكان من النوع الذي أطلق عليه القدماء اسم (المجذع)، ولعل السبب في هذه التسمية تشبهه عروقه بالمجذعات؛ ذلك أن طريقة الرصف تقوم على تshireج قطعة الرخام إلى شريحتين، أو أربع، ثم رصفيها مقابلة ليتكون من مجموعها شكل رباعي متوج، ولهذا الترخيم ما يُشبهه في قبة الصخرة في القدس، وفي كنيسة آيا صوفيا في إسطنبول.

وقد زال الترخيم من جدران جامع (بني أمية) بسبب الحرائق والزلزال، وبقيت أجزاء صغيرة منه عند دهليز الباب الشرقي تدل على الأصل.

- الفسيفساء:

كانت توضع من أعلى الترخيم حتى السقف، وكذا تكسو العضائد والعقود وواجهات القناطر، وتغلب فيها فصوص الزجاج الملون بين مذهب وفضض، وبينها قليل من الرخام الملون والأصداف، وتكون من رصف هذه الفصوص لوحات رائعة تتمثل مشاهد معمارية، بينها المنازل والجسور والقرى، تحف بها أشجار من أنواع مختلفة تجري من تحتها الأنهر، ويحيط بهذه اللوحات إطار من أشكال هندسية، وكانت تحزمي

٩٧- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، /١٥٧/.

٩٨- الريحاوي، قم عالمة في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص ١٢٤/.  
البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٧١/.

آيات قرآنية ونصوصاً تاريخية ذكرها المؤرخون كـ(المسعودي) و(المهلي)؛ ذلك أن فسيفساء الحرم زالت كلها بسبب الحرائق المتكررة، ولم يبق سوى قطعة صغيرة شوّهها الحريق، وأهم ما بقي منها يوجد في الرواق الغربي والجدار الشمالي من الصحن، والتي تمثل منظراً طبيعياً لدمشق بغوطتها ونهرها ومبانيها آنذاك<sup>٩٩</sup>.

وكذلك استُخدم الذهب في التجميل، ولم يعد له أثر اليوم، فقد كانت تيجان الأعمدة مطلية به، وكذا السقوف الخشبية كانت مذهبة<sup>١٠٠</sup>، وشملت الزخرفة أيضاً النوافذ التي كانت مصنوعة من شبابيك الجص المuszق بعده بالزجاج الملون، والتي تقدم وصفها عند الحديث عن الحرم، وهناك نوافذ الرخام المشبك التي لم يبق منها سوى ٦/٦ نجدها في قاعة المشهدين الغربيين، لعلهما الأصل الأموي لسائر النوافذ، وتنتكون واجهاتها من الأشكال الهندسية المتشابكة تختلف من واحدة إلى أخرى.

وكان في المسجد كثير من النفائس من أهمها المخطوطات والمصاحف التي كان أهمها (مصحف عثمان)، وهناك قناديل من الذهب والفضة والبلور، معلقة بسلسل من الذهب، بلغ عددها (٦٠٠) سلسلة<sup>١٠١</sup>، كذلك اشتهر جامع دمشق بما يملكه من الساعات التي تتواترت بحسب العصور، واشتهرت منها واحدة كان لها نظام للنهار، وأخر للليل، وكانت مقامة عند الباب الشرقي (باب جبرون)، فهي فتحة كبيرة داخلها طاقات صغيرة لها أبواب من نحاس، كلما مضت ساعة أغلقت واحدة، وقبل إغلاقها تسقط بندقان من فمي بازير في طاستين من النحاس، فيسمع دويها، ولهذه الساعة في الليل تدبر آخر يعتمد على ألواح من الزجاج مستديرة عند كل طاقة، وخلف كل زجاجة مصباح يدور فيه الماء، كلما انقضت ساعة احمرت الدائرة الزجاجية بأكملها، وهذا في كل ساعة<sup>١٠٢</sup>، وكان الترويقي في المسجد يعتمد في القرون الأخيرة على الساعات الشمسية والساعات الفلكية التي أطلق عليها اسم (البسيط)، وقد تم التئور على واحدة منها مصنوعة من الرخام كانت تحت أرض الصحن صنعتها ابن الشاطر المنشي<sup>١٠٣</sup> عام ٧٧٣هـ/١٣٧١م.

هذا ويشبه الجامع الأموي في التخطيط المسجد الأموي في حلب الذي بدأ بناءه الوليد وانتهى في عهد أخيه سليمان<sup>١٠٤</sup>.

<sup>٩٩</sup>- الريحاوي، (عبد القادر)، فسيفساء المسجد الأموي، مجلة الدراسات الأثرية السورية، المجلد ١، دمشق، ١٩٦٠، المقال بالكامل.

<sup>١٠٠</sup>- السلطاني، (خالد)، العمارة في العصر الأموي (الإنجاز والتأويل)، دار مدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٦، ص/١٤٢.

<sup>١٠١</sup>- الريحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص/١٢٧-١٢٨.

<sup>١٠٢</sup>- ابن جبير، الرحلة، ص/٢٤٣.

<sup>١٠٣</sup>- الريحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص/١٣٣.

<sup>١٠٤</sup>- الحموي، معجم البلدان مادة مشتملة المسجد الأموي، الرفاعي، الإسلام في حضارته، ص ٣٨٥.

وبنحو القرارات التصميمية في مبني (قصير عمرة) مختلفة، تماماً، عن تلك الممارسة التصميمية التي رأيناها حاضرة، في عمارة المباني الأموية، سواء كانت عمارة مساجد، أم تكوبينات لقصور ملوكية. إن سعة جداريات لوحة (الفريسكو) في قصير عمرة، وإيكاساتها لجميع عناصر التركيب الإنشائي للمبني من جدران، وسفروف إلى أقواس، يعد بحد ذاته أمراً غاية في الأهمية، ويمثل حدثاً تصميمياً رائداً، وفريداً في متجرات ليس فقط في العمارة الأموية، وإنما في العمارة الإسلامية عموماً، ذلك لأن هذا الحدث الفني لم (يتكرر لا في ناحية "موضوع" ، ولا في الأسلوب الفني)<sup>١٢٣</sup>، بل إن أحد دارسي الفن البيزنطي، يعترف بأن المساحات الكبيرة لجداريات (قصير عمرة)، واسعها، وما تمثله من لوحات الفريسكو Fresco، لم يعرف لها نظير، في أي بناء ديني قبل فترة الرومانسك Remanesque Period<sup>١٢٤</sup> الأمر الذي يرسخ، مرة أخرى، أهمية هذا الحدث الفني في عمارة المبني. الشكل (١٧)

تعد الحلول الإنسانية، وتتواءطها في (قصير عمرة) من الأمور المهمة، في سجل عمارة المبني، ويعكس تنوع أساليب تسفيفات الفضاءات فيه، عن مستوى عال من الدرامية الإنسانية، لدى مصمم المبني. فالقاعة الرئيسية سقطت بوساطة عقدين كبيرين، يستندان على دعائم جدارية، ترفع أقبية برميلية طولية، وغرف الحمام الثلاث، سقطت بأساليب إنسانية مختلفة. فالغرفة الأولى فيه، كان تسقيفها بوساطة قبو برميلي، والثانية، يقبو مقاطع، والثالثة سقطت بقبة!.

كما يلاحظ، استخدام عنصر إنساني على جانب كبير من الأهمية في النظام التركيبسي (قصير عمرة) وهو ظهور العقد المدبب The Pointed Arch وتوظيفه في إنجاز رفع السقيف بالقاعة المركزية، حيث تكون مسافة تجاوز المركزين بأبعد ٥/٥ في باع القوس؛ وهي نسبة عالية جداً مقارنة بسوابقها، لقد كرس استخدام العقد المدبب في المنظومة التركيبية لقصير عمرة، سلسلة من النجاحات الإنسانية في عموم الممارسة البنائية الأموية، وأثر، لاحقاً في تطور العمارة والإنشاء في حضارات أخرى، ويشير كريزويل، إلى هذا الحدث الإنساني، ويقول بأن ظهور القوس المدبب، في قصير عمرة، وكذلك في حمام الصرخ، فهو تأكيد على أولوية الشرق فيه، لأنه لا وجود لأمثلة أوروبية معروفة قبل نهاية القرن الحادى عشر الميلادى أو بداية القرن الثاني عشر الميلادى<sup>١٢٥</sup>.

#### ٨- قصر الحير الغربي /١٠٩-١٢٧ م/:

يقع في بادية الشام على الطريق بين دمشق وتدمر إلى الشرق من قرية القرىتين، وجرى الكشف عن معالمه، ودراسة المنشآت المحيطة به بين عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٨، ونقلت عناصره المعمارية والزخرفية إلى متحف دمشق الوطنى، واستخدمت في إعادة قطعة من القصر شملت "البوابة وجزءاً من الصحن والرواق، والقاعات المجاورة للدخل في الطابقين الأرضي والعلوي.

١٢٣- بن نايف، (وجдан على)، الأمويون...، ص/٥٦.

١٢٤- Dalton, Byzantine Art, P/281.

١٢٥- Creswell, A Short. E.M.A. p/116-117/

شيد هذا القصر على أنقاض دير بناء (الحارث بن جبلة الغساني) غرب مدينة تدمر. وينسب علماء الآثار بناء القصر إلى الخليفة هشام بن عبد الملك استناداً إلى نص منقوش بالخط الكوفي على باب خان عثر على أطلاله على بعد ١٠ كم من القصر، والقصر مربع الشكل، مؤلف من طابقين، مزین بالفسيفساء، وجدرانه مطلية برسوم ملونة، وتحيط به مراقبة تامة. ١٢٦.

وذكر (الطبرى) أن هشاماً كان ينزل الزيتونة في بادية الشام، فلما عمر الرصافة انتقل إليها، فكانت منزلة إلى أن مات ١٢٧، كما ذكر ابن كثير (أن الخلافة أنتهت وهو في الزيتونة في منزل له، فجاءه البريد بالصراخات، فسلم عليه بالخلافة، فركب من الرصافة حتى أتي دمشق). ١٢٨.

وقد تساعل الباحثون عن الزيتونة، أهي قصر الحير الشرقي، أم هي نفسها الرصافة، أم هي قصر الحير الغربي، أم هي قصر المفجر؟

ووفقاً لما قام به العالم شلومبرجيه تبين أن قصر هشام كان يطلق عليه اسم (الزيتونة)، وهو الاسم الأصلي، أما (الحير) فتسمية حديثة استعيرت من معنى السور الذي كان يحده. وكان سد خريقة يغذي القصر بالماء عن طريق فناء تنتهي بخزان يبعد ٦٥ كم عن السندة، ثم يغذي ماء الخزان القصر والجامع والحمام والحدائق والطاحون والخان الذي يقع قرب البركة، بالماء اللازم. ويقع الحمام شمال القصر، وهو مقسم إلى قسمين: بارد، ودافئ، وقد فرشت أرض القسم الدافئ بالرخام، كما طليت جدرانه بطلاء ملون تقليداً للرخام.

وقد اكتشف درجان خشبيان بوكدان وجود طابق ثان، كما عثر على درابزين رواق الطابق الثاني، وهو يمثل قطعاً جصيّة منحوتة، وكانت بيوت الطابق الثاني وغرفه مطابقة لنظرائها في الطابق الأرضي، وكان النور يدخل إلى الحجرات عن طريق كوات، أما الفتحات الداخلية فكانت توافرها مشيكات جصية رائعة التكوين.

ويستدل على تاريخ هذا القصر من كتابتين: الأولى نقش على ساكن أحد أبواب الخان، وهو محفوظ حالياً في حديقة المتحف الوطني في دمشق، وعليه الكتابة الآتية: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، لَا إِلَهَ وَهُدَىٰ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَمْرٌ بِصَنْعِهِ هَذَا الْعَمَلُ "عَبْدُ اللَّهِ هَشَامٌ" أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أُوجِبَ أَجْرُهُ - عَمَلٌ عَلَى يَدِ (ثَابِتٍ بْنِ ثَابِتٍ) فِي رَجَبٍ / ١٠٩ / لِلْهَجَةِ).

أما الكتابة الثانية فهي على جزء من حجر رخامى أبعاده (٦٥×٧٥ مم)، تبين (شلومبرجي) فيها بعد الترميم الكتابة الآتية: (من (هشام) أمير المؤمنين إلى "الوليد أبي العباس"، أحمد الله إليك)، ويعتقد

١٢٦- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ١٩٠.

١٢٧- الطبرى، (محمد بن جرير) /١٠٣١هـ/، الرسول والملوك، ج ٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٧٧.

١٢٨- ابن كثير، (عماد الدين بن إسماعيل ت ٤٧٧هـ / ١٢٥٤م)، البداية والنهاية، مطبعة العادة، مصر، ١٩٣٢، ج ١٣، ص ٣٠١.

(شلومبرجي) أن هذه الرسالة كانت موجية إلى (الحجاج بن يوسف)، وهذه الرقة محفوظة في جناح

قصر الخير في المتحف الوطني في دمشق.<sup>١٢٩</sup>

والبقعة التي شيد فيها القصر بادية خصبة التربة، جلبت إليها المياه من وادٍ يدعى (خرقنة) — كما تقدم — مدت منه قنوات إلى خزان كبير بجوار القصر، وعثر حول القصر على آثار حمام وطاحون وبساتين محاطة بسور من اللبّ بلغت أبعاده (٤٤٢ × ٥٠٠ م).<sup>١٣٠</sup>

أما القصر فقد تحول إلى أطلال تظير فيها أقسامه السفلية المبنية بالحجر الكلسي، وقد أمكن التعرف على مخططه الكامل بعد أعمال التنقيب التي تم بنتيجتها أيضاً العثور على كثير من عناصر القصر المعمارية والزخرفية.<sup>١٣١</sup>

ثم إن المخطط العام للقصر يشبه القصور عامة: سور مرتفع مزود بالأبراج الدائرية ذات مسقط نصف دائري في الأضلاع، وقرب من الدائرة في الأركان، باستثناء الركن الشمالي الغربي الذي يحتله برج قديم لموقع غساني، وببوابة القصر مفتوحة بين برجين نصف دائريين مزخرفين.

واستخدم في بناء القصر الحجر إلى ارتفاع مترين، ثم من الطوب والأجر مع عوارض خشبية.<sup>١٣٢</sup>  
القصر مربع الشكل تقريباً أبعاده (٧٠ × ٧١ م)، يتوسطه صحن يحيط به رواق محمول على أعمدة تنتظم خلفها المجموعات السكنية، وتتألف من (٦) بيوت مستقلة متلاصقة، يحوي كل بيت من (٨) إلى (١٣) قاعة أو حجرة — وتتجذر لهذا الترتيب في قصر عنجر — أبوابها مفتوحة على الرواق، وفي كل منها قاعة رئيسة في الوسط، ويدخل النور إلى الغرف من الصحن عن طريق الأبواب، أو الفتحات (السمسات) فوقها، في حال إغلاق الباب، والسمسات مصنوعة من الجص، يعلوها عقد حدوبي، وتعده عملاً فنياً وعنصراً زخرفياً بما تمتله من الأشكال الهندسية والعروق النباتية.<sup>١٣٣</sup> الشكل (١٨)

وكشفت أعمال التنقيب التي قام بها (شلومبرجي) أن القصر كان مزيناً بالפסيفسائي الذي يقي منه بعض الألوان الصغيرة مع بعض النصوص التي عثر عليها مع الألوان قرب المدخل، كما أن بعض الجدران قد زُينت بالخشب المنقوش، وقد عثر على قطع منها تحفظ بعض الرسوم الملونة والمذهبة تمثل أزيهاراً وأشكالاً هندسية انحصر وجودها في البناء الداخلي، أما جدران الغرف فكانت مطلية برسوم ملونة

١٢٩- البيهقي، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/ ١٩١، ١٩٢.

١٣٠- الريحاوي، (عبد القادر)، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩، ص/ ١٣.

١٣١- محجوب، (ناظمة)، الموسوعة الذيفانية للعلوم الإسلامية، المجلد ٥١، القاهرة، ١٩٩٧، ص/ ١٣٠.  
الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/ ٦٧، ٦٩.

١٣٢- البيهقي، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/ ١٩٣.

١٣٣- السلطاني، (خالد)، العمارة في القصر الأموي (الإجاز والتاويل)، دار مدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٦، ص/ ١٨٨.

بعضها زخرفي لا يمثل أشخاصاً أو حيوانات، وهي تُزين غرف الطابق السفلي من البناء، وهذه الزخارف

على (٣) أنواع:

منها ما يمثل شرائط أفقية عريضة، وقد استعمل فيها (٣) ألوان هي الأبيض والهيلي والخمرى.

ومنها ما يمثل تمثيلاً ملوناً يشبه الرخام، يصور عمداً مشابهة تقويم في الزوايا مؤلفة من انتفاخات متكررة.

ومنها ما يمثل رسوماً هندسية أو نباتية، واحد منها فقط يمثل حيواناً خرافياً، تضاف على هذه الرسوم، وعلى صف موازي، دوائر تزيينية مشححة.

وتتألف زخرفة قصر الحير الغربي من الزخارف الجصبية الشكل (١٩) في واجهة القصر، ومن الزخارف الجدارية المشابهة للتمثيليات الرخامية، ومن زخرفات الكوارث ومن الصور الملونة الكبيرة، حيث يوجد في واجهة القصر مجموعات من الزخارف الجصبية النافرة منتشرة بارتفاع (٤٤,٤٥) على البرجين المحيطين بالمدخل الشرقي الوحيد.

ومن أهم الألواح التزيينية التي ما زالت في وضع جيد صورتان كبيرتان أعيد تركيبهما في القسم العلوي من جناح قصر الحير الذي أعيد بناؤه في المتحف الوطني في دمشق، وألوان هاتين الصورتين أصبحت باهتة مع الأيام، وكانتا تقطلان أرضية زوايا الدرج، ويُعتقد أنهما نقلت للفسيفساء أقيمتا حيث عزّت أحجار الفسيفساء وتقاليدها.

تتألف الصورة الأولى من شكل دائري في الوسط يضم صورة نصفية لامرأة تمسك قطعة فماش مليئة بالفواكه، وقد طوقت عنق هذه المرأة أفعى، مما يذكرنا بصورة (جيما) إلهة الأرض، وتحيط بالشكل الدائري نطاق فيه دوائر صغيرة متتابعة فيها رسوم نباتية، ويزين أطراف الدائرة من الخارج زخرفة نباتية محورة يعلوها مخلوقان بidden إنسان ورأس حيوان وقدميه وذنب أفعى، أطلق عليهما (شلومبرجي) اسم القنطوريون البحري، وصور حيوانات الجهة الأخرى لم تعد واضحة؛ لتلفها، وهي تمثل ثعلبين: أحدهما يأكل عنباً، وطيرين من الكراسي، وكلب يتبع حيواناً آخر، ويحد الصورة من الطرفين شريط من الزخارف النباتية ستصبح في الرقش العربي أساساً للزخرفة والتزيين.<sup>١٣٤</sup>

أما الصورة الثانية فتتألف من مستطيل كبير مقسم على (٢) أقسام ذات ارتفاع غير متساو، وتحيط بالصورة كلها شريط زخرفي مؤلف من وردة مكررة ذات (٤) وريقات، وموضع القسم العلوي موسيقيان: امرأة تعزف على العود، ورجل ينفع في ناي، يفصلهما قوسان منفصلان، وقد وجد الفنان المصوّر أنه من الممكن إشغال بعض الفراغ في الصورتين، فأضاف غرستين ملونتين في كل قسم، وظهر

<sup>١٣٤</sup> - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ١١٦.

في القسم الثاني فارس يسابق الريح يطارد الغزلين، فيسقط أحدهما على الأرض جريحاً، بينما يهرع آخر وقد التفت مذعوراً إلى قناته الذي يُسدّد سهمه باتجاهه.

وتبدو هذه المشاهد ملوفة في الفن السياسي؛ ثم إن ظاهرة الاهتمام بالتقالييد الفنية السياسية تُفسر تطلع هشام بن عبد الملك إلى توسيع نفوذه باتجاه الشرق الفارسي بعد أن يشن من القضاء على الروم.

يمتاز قصر الحير الغربي باحتواه على نوعين من النحت: أحدهما.. النحت الزخرفي، ويمثل أشكالاً نباتية محورة أو هندسية مجردة مصنوعة من الجص البارز في الواجهة، أو من الجص المفرغ في النوافذ، وهذا النوع من الزخرفة هو بداية الرقش العربي (الأرابيسك)، رغم استئثاره من عناصر ساسانية ورومانية.<sup>١٣٥</sup>

والثاني.. النحت التشبيهي الذي حفل به القصر الذي يشابه بأسلوبه وطريقته تنفيذه النحت الذي عُثر عليه في قصر المفجر قرب أريحا، ومن ذلك يمكن القول منذ الآن إن وحدة أسلوب النحت في هذين القصرتين واضحة جداً، ومن أهم التقى النحتية التشبيهية التي عُثر عليها وأعيد ترميمها، تمثال شخص يمكن أن يكون الخليفة (هشام)، ويؤكد ذلك مقارنته مع تمثال مشابه وُجد في قصر المفجر، ويُعتقد أن مكان هذا التمثال هو الجبهة الخارجية فوق الباب مباشرة، وفي أعلى الواجهة صفت من التماثيل النصفية عُثر على (٣) منها تمثل نسوة عاريات، وفي مكان آخر (٣) قطع منحوتة لـ (٣) خراف وحيوانات أخرى يميز من بينها فهود، وفي طرف القوس العلوى الأيمن أعيد تركيب تماثيل الشكل (٢٠): أحدهما رجل مضطجع تجلس إلى جانبها امرأة في وضع يُشبه أوضاع التماثيل التدميرية الجنائزية، وثمة تماثيل أخرى يُعتقد أنها كانت في جدار رواق الطابق الثاني من الواجهة الداخلية الشرقية، وقد أعيد تركيب ما عُثر عليه، من ذلك تمثال بارز ملون لفارس متوجه إلى اليمين فقد رأسه، وبقي معطفه وكفنه، ومنها تمثال رجل جالس على عرش قائمته محزنة، ويضع قدميه على كرسي صغير، ولم يبق من هذا الرجل إلا نصفه السفلي، وهو ملون أيضاً، ثم تمثال نسر باسط جناحيه بأرياش منتظمة أفقياً، وثمة تماثيل أخرى، كتمثال امرأة في وضع متحرك ذات ثوب شفاف ملتصق على جسمها المكتنز، وتمثال امرأة عارية الصدر رأسها مفقود، وجذع تمثال لامرأة عارية الصدر، ونصف تمثال رجل، وغير ذلك، إضافة إلى زخارف خشبية.<sup>١٣٦</sup>

<sup>١٣٥</sup> - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/١٩٤.

<sup>١٣٦</sup> - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/١٩٤.

محمد، (سعاد ماهر)، الفنون الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص/٢١٥، ٢٢٦.

علاء، (نعمت إسماعيل)، فنون الشرق الأوسط في الصوبون الإسلامية، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧٧م، ص/٢٥، ٢٧.

في الbadية السورية منشآت أخرى مماثلة يطلق عليها (قصر الحير الشرقي)، وتقع إلى الشمال الشرقي من تدمر، على مسافة (١٠٠ كم) تقريباً، حيث تُوج أطلال قصررين كبير وصغير وحمام، وبجوارهما سور واسع بطول يزيد عن (٦٠ كم)، مدعم بدعامات، وفي أحد أجزائه فتحات ذات أقواس عاديّة يمكن إغلاقها بأبواب من الخشب، وثمة قناة تنقل الماء من مكان بعيد جداً تمت (٥٧٠ م)، تنقل المياه إلى هذه المدينة، يحتمل أنها من قبل الإسلام، وهذه الأرض التي يمكن تنظيم الري فيها لا بد من أنها قد استعملت لزراعة بعض النباتات ولإقامة الفلاحين؛ إذ تضم حماماً وأسواراً لبساتين ومزارع، وهذا يؤكد ما سلف ذكره من أن القصور الأموية كانت وحدات سكنية في قرى أو مجمعات ريفية، وقد شغلت هذه الوحدات السكنية دوراً تجارياً مهمّاً، لموقعها وفعاليتها.<sup>١٣٧</sup>

وقد اختلف العلماء في تاريخ إنشاء قصر الحير الشرقي، وفي الاسم الأصلي للموقع، ورأى العالم الأميركي (غرابار) الذي تولى أعمال التقبّب في السبعينيات أن الاسم القديم للموقع هو (العرض)، وأن القصر الصغير كان خانأً أو محطة للقوافل، لا قصراً، ورأى كذلك أن القصر الكبير كان مركزاً إدارياً يرجع تاريخ بنائه إلى العصرين الأموي والعباسي من دون تحديد التاريخ.<sup>١٣٨</sup>

وفي رأي (غرابار) تناقض ظاهر في تحديد وظيفة المنشآت؛ لأن محطة القوافل لا تستدعي وجود حمام على مستوى رفيع، وبساتين أحاطت بها أسوار متقدة البناء، جلبت إليها المياه من مسافة تقدر بـ (٣٠ كم)، كما أن المركز الإداري في القصر الكبير لا يتافق مع محطة للقوافل، بل هو مكمل لقصر الخليفة وما يتطلبه من خدمات أساسية.

وعلى كل حال، ما يهمنا هنا هو الناحية المعمارية، وسيتبين عند وصف العوامل أن الفن - مما لا شك فيه - أموي، وعلى الأرجح من عهد الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك)، كما تدل النصوص والكتابات، ولعل ترميمات وإصلاحات أجريت على المبني في عهد لاحق غيرت من معالم بعض العناصر.<sup>١٣٩</sup>

#### • القصر الصغير:

شكله مربع غير منتظم، طول ضلعه حوالي (٧٠ م)، وما زال يحتفظ بالجزء الأعظم من أسواره المبنية بالحجر الكلسي الجيد النحت، حتى ارتفاع (١٥ م)، وقد تهدم أكثر المنشآت الداخلية المبنية بالأجر، والسور مزود كالعادة بأبراج دائرية، (٤) في الزوايا، واثنان في كل ضلع، تنتهي في أعلىها بغرفة مراقبة مسقوفة بقبة مزودة بالمرامي، وكان يعلو الأسوار ممراً دفاعي للوصول إلى الغرف المذكورة، عرضه (٦٠ م)، مزود بستائر من الأجر.

١٣٧ - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/١٨٨.

١٣٨ - الريحاوي، (عبد القادر)، قصر الحير الشرقي، مجلة العوليات الأثرية السورية، دمشق، /١٩٧٧، العدد ٢٧، ص ١٥.

١٣٩ - السلطانى، العمارة في العصر الأموي (الإجاز و التأولى)، ص/١٩١.

وللقصر باب وحيد يتوسط الجدار الغربي، مفتوح بين برجين، ويؤدي إلى الصحن عن طريق

دهليز.

ولم تتضح تفاصيل مخطط القصر بسبب الأنقاض المتراكمة في الداخل وتهدُم سقوف البيوت. الصحن السماوي مرصوف بالباط، يحيط به رواق على أعمدة، ووراء الرواق البيوت التي تبدو سقوفها مبنية بالأجر على شكل قباء طولية.<sup>١٤٠</sup>

بوابة القصر أقل فخامة من مثيلتها في قصر الحير الغربي، لكنها مزودة بعنصر دفاعي مهم هو الروشن (شرفة بارزة من الحجر مزودة بسقاطتين لصب السوائل المغلية)، ويعُد هذا أقْمَن عنصر من نوعه في العمارة الإسلامية. الشكل (٢١)

أما فتحة الباب فمستطيلة، سعتها (٣٣)، مسقوفة بساكفت معقود بالحجارة المعشقة، فوقه عقد عائق على شكل قوس حدوبي، وعلى جانبي الباب محرابان صغيران. الشكل (٢٢)

الزخارف في القصر قليلة، ولا تماثل ما في قصر الحير الغربي، والأبراج في قممها تُظْهِر نظاماً زخرفياً أَحَدَّاً أصيلاً من الأجر والجص، تبدأ من الأدنى بالزخارف الموجية المستقيمة، ويتلو ذلك مدامakan من الأجر الصغير بمساحة (٠٠٢ م²) تقريباً، مرصوف على شكل معينات، ثم مداماك آخر من الأجر، وفوق ذلك مباشرة المداماك الأخير من الأحجار، يرتكز عليه عقد القنطر الزائفة الجذاب المؤلف من سلسلة من الألواح المستطيلة التي يقسمها زوجان من الأعمدة الصغيرة الجزعة والمُؤلَفَة من سلسلة من الحلية السهمية المترعرجة، وقد وُجِدَ القوس في الأعلى مزياناً بنباتات الأكانتوس، ولكن التطعيم في الألواح تالف جداً، فالزخرفة ليست محفورة بل ناتحة، ويبعد أنه تم استعمال (٤) زخارف، ويعلوها كلها مداماك من الأجر الموضوع ليُشكّل زخرفة على شكل أسنان الكلب، وفوقه عدة مداماك من الأجر العمودي، وفوقها القبة الآجرية التي تتوهج البرج بعد الارتداد عن وجه الجدار، والإفريز الرواقى يمتد بين الأبراج<sup>١٤١</sup>، والأبراج الباقيَة تعالج كالتالي: الشريط الأول من الأجر الذي يتتألف من (٥) مداماك، ويمتد بجانب السور، وحول كل برج، ثم تتلوه (٣) مداماك من الحجر، وبعدها شريط آخر من الأجر المربع الصغير الموضوع على شكل معينات، ثم (٣) مداماك أخرى من الحجر، وبعدها شريط آخر من (٤) أو (٥) مداماك من الأجر الذي تعلوه قبة من الأجر، وكل برج - في حال بقائه فوق ممر التراس - له غرفة صغيرة فوقها قبة ما عدا البرج المجاور للمدخل من الجهة الشمالية الذي يبدو أن فيه درجاً حلزونياً، ولكن الدرجات كلها اختفت، ولم يبق إلا أسطوانة فارغة، والطابق العلوي الذي لا تزال بعض غرفه قائمة في الركين الشمالي الشرقي والجنوبي الشرقي، ولا بد من أنه كان ذا سقف خشبي؛ لأننا نستطيع أن نرى حفر العوارض الخشبية على طول جدران البناء على مسافة (١٦٥ م) تحت المترasis<sup>١٤٢</sup>.

١٤٠ - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٧١، ٧٤.

١٤١ - الريحاوي، (عبد القادر)، قصر الحير الشرقي، المجلد ٢٧، ص/١٦.

١٤٢ - البهنسى، (عفيف)، الفن الإسلامي، دار طлас، ١٩٩٨، دمشق، ط٢، ١٩٩٨، ص/٢٥٩.

\* القصر الكبير:

أشبه بمدينة صغيرة أنشئت إلى جوار قصر الخليفة، لتكون منزلاً للحاشية، وهناك قرائن كثيرة تؤيد هذا الرأي، منها أن كلمة (المدينة) وردت في نص تاريخي عثر عليه في الموقع، وقد نسب النص بناء المدينة إلى الخليفة الأموي (هشام بن عبد الملك) عام ١١٠ هـ / ٧٢٨ م، ونجد في المخطوط أسواراً زُوِّدت بـ (٤) بوابات مستطيلة الشكل تتصل بشوارع على محاور متعددة تؤدي إلى الساحة العامة، ثم إلى البيوت المسقطة الموزعة حولها، وما عثرت عليه بعثة التقييم من آثار: معصرة للزيت بالقرب من المسجد الذي يحتل الزاوية الجنوبية الشرقية، والممؤلف من صحن وحرم، وأخيراً فإن المساحة تزيد على مثلي مساحة القصر الصغير، فهو مربع طول ضلعه (١٦٠ م). (الشكل ٢٣)

أما من ناحية الفن، فإننا لا نجد أي زخارف في البوابات والأسوار، وهذا يتفق مع وظيفة البناء المشار إليها، كما أن تخطيط المسجد مماثل تماماً لجامع (بني أمية) في دمشق، سوى أن مبناته منفصلة عنه؛ إذ جعلت بين القصرين على شكل برج مربع، ومدخل أبواب الأربع المستطيلة تعلوها عقود عائمة، لكنها تختلف عن عقد القصر الصغير؛ إذ تبدو حدودية مدبية، وهنا نجد أقدم أنموذج لهذا العقد.

وأربعة المداخل متطابقة تقريباً، يتتألف كل منها من مدخل عرضه أقل من (٣م)، فوقه عارضة أفقية معشقة، وفوقها قوس عائق مرفوع قليلاً ومدبب قليلاً، وقلب مقصه ممتد بالحاجرة المررتدة إلى خلف بمقدار (٤سم) عن وجه القوس، وفوق كل مدخل روشن فيه كوتان سقاطتان فوق (٣) كثافتين و(٣) طبقات من الزخرفة، وروشن المدخل الشمالي أعرض من البقية، وترتتكزان فوق (٥) كثافتين ممددة، والوسطي منها مزينة بوردة دائرية، أما في قلب مقصه التوافذ فتقعوب متباعدة بمقدار (٢٥ سم)، الغرض منها إيجاد مقاييس للمونة التي أصقت فوقه زخارف القيشاني، وليس هناك أي مثال لهذه الزخرفة القيشانية في العمارة الإسلامية المبكرة في مثل هذا التاريخ المبكر، ومن المرجح أن الزخرفة كانت جصية، لأنها مستعملة على الأبراج على جانبي مدخل الفناء الصغير.

وأنشئ المسجد في الركن الجنوبي الشرقي من ذياء القصر الكبير، وهو مؤلف من صحن مساحته (٢٢٨م) محاط بأروقة محمولة على عضادات وأعمدة، ويحصل به الحرم، تحمل أسلفه أعمدة وعضادات رخامية ذات أقواس، ويعود هذا المسجد حسب كتابة اكتشفها (دوسو) إلى عهد الخليفة هشام بن عبد الملك / ١١٠ هـ / ٧٢٨ م، ومن عمل أهل حمص على يد (سلیمان أبی عبید).

أما الداخل فلا يحتوي على أي أبنية، ما عدا بقايا البناء الوحيد في الركن الجنوبي الشرقي الذي لا بد من أنه أنشئ بعد إتمام الفناء نفسه؛ لأن هذلاله اتصالاً عمودياً كاملاً بين بنائه وبين ثلاث العడاد المتصلة به، والبناء مسجد من دون شك؛ إذ إن صفات الأعمدة بمحاذاة الجدار الجنوبي هو الواجهة المطلة على الصحن، والفحص يكفي ليظهر: أن صفات الأعمدة التي تحتوي كل منها على (٣) أعمدة تمت من

١٤٣ - الريحاوي، (عبد القادر)، قصر الحير الشرقي، المجلد ٢٧، ص ١٧-١٨.

الشمال إلى الجنوب ما هي إلا الجناج العرضاني. (المجاز القاطع)؛ لأنها تتخذ شكل حرف (T)، وأن صفي الأعمدة التي تقسم الحرم إلى (٣) بلاطات لا بد من أنها انتهت مقابل الواجهة الخارجية للحرم، والمطلة على الصحن، وليس من الممكن تحديد الارتفاع الأصلي للجناج العرضاني؛ إذ يمكن أن يكون أعلى من الارتفاع الحالي للجداران الآجرية بمتر واحد، ولكن البقايا الفعلية له — وهو ثانية أقدم مسجد جامع في سوريا — كافية لتأكيد التأثير السائد لمسجد دمشق الكبير، وتقع المذنة بين فناء القصرين، على شكل برج مربع بسيط يبلغ متوسط ضلعه (٢٠,٩٤م)، وارتفاعه حوالي (١٠م)، ولكن قسمه العلوي مفقود<sup>٤٤</sup>، أما المدخل فهو يدي إلى الدرج الحزوني من الجهة الجنوبية، والقمة الحالية بمستوى ما كان متراساً للفناء الصغير، ويمكن أن تكون أعلى مما هي عليه الآن بمقدار (٣-٢م)، ومن ثم أشرفت على الفناءين كليهما. إن فقرات العقود المعاشرة هي ذات التأثير من العمارة السورية قبل الإسلام مثل بيت لحم في المدخل الأوسط لواجهة الرزاق لعهد (جستيان)، وفي بازلكا سيرجيوبوليس في الرصافة حوالي عام (٤٠٠م)، ومن المرجح أن فقرات عقود قصر الحير المعاشرة مشتقة من الرصافة؛ نظراً لأنها على مسافة أقل من (٤كم)، أما السقطات فلها أنموذجات في الحضارات السابقة للإسلام في شمال سوريا، مثل تلك التي في دير قيطة؛ إذ تبدو كأنها حصن مراقبة منعزل تاريخه (٥٥١م)، كما أن هذه الوسيلة الدافعية مستخدمة في أميدا (ديبار بكر) بتاريخ (٤٥٥م).

ويُعد استعمال الأجر في قصر الحير أمراً غريباً، لأن سوريا قبل الإسلام كانت بلاد العمارة الحجرية، ثم إن الأجر المستخدم في قصر الحير أصغر وأسمك من الأجر البيزنطي الصغير؛ إذ إنه يشبه الأجر المستخدم في بوابة بغداد في الرقة عام (٢٧٢هـ)، وطبقات المونة أقل سمكًا من الأجر، كما هي الحال في أعمال الأجر العراقي؛ لذا يظهر قصر الحير مزيجاً من التأثير بينه الاستعمال الزخرفي لأعمال الأجر لإعطاء تأثير مخطط بيزنطي للبناء، ولكن الأجر نفسه وطبقات المونة هي من بلاد ما بين النهرين.<sup>٤٥</sup>

أما مياه القصر فتأتيه من نبع الكرم على بعد (٣٠كم)، وقد استمرت الحياة فيه حتى العصر الأيوبي<sup>٤٦</sup>.

(١) حمام السراج (الصراح) /٧٢٠ - ٧٢١ :  
يقع منيني "الحمام" في وادي الصالب بالبادية الأردنية على بعد (٥٥كم) عن العاصمة الأردنية — عمان، وعلى مسافة نحو كيلومترتين جنوب شرق قصر العجلات.

٤٤- البيهقي، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/١٨٩.

٤٥- كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص/١٦٥، ١٦٠؛ الريحاوي، (عبد القادر)، قصر الحير الشرقي، المجلد ٢٧، ص/٩١٩ - ٢٣.

٤٦- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثرها في سوريا، ص/٧٧.

## ❖ الصفات العامة للعمارة الأموية:

- ١- تتميز العمارة الأموية بأنها قوية ومتينة، تشبه الحصون، فهي تحتوي على الأسوار المرتفعة المزودة بالأبراج .
- ٢- الأقسام الداخلية تتتألف عادة من باحة سماوية تحيط بها الأروقة المنسقفة، تتقدم مجموعة من البيوت.
- ٣- شيدت العمارة الأموية إجمالاً بالحجر المتوفّر في بلاد الشام، وإلى جانبه الأجر أو اللبن المغشى بالجص أو الكلس أحياناً.
- ٤- أهم العناصر المعمارية في العمارة الأموية هي الأعمدة الرخامية أو الحجرية، والعضائد ثم العقود النصف دائيرية وأحياناً (العقد الحدوبي) أي الذي يتجاوز نصف الدائرة قليلاً، أما العقد المدبب فكان قليل الاستعمال.
- ٥- أما التسقيف، فنجد السقف المستوي المصنوع من الخشب، والإقباء المعقوفة، واستخدمت القبة على مقاييس ضيق وكانت صغيرة الخجم نصف كروية، واعتمد على المثلثات الكروية لملء الفراغ في روايا الانتقال في القباب بين المسقط المربع والمسقط الدائري.
- ٦- أما أهم العناصر الزخرفية المستخدمة في العمارة الأموية فكانت الفسيفساء في الأرضيات، والرخام فيكسوة الجدران، والرسوم الجدارية نجدها في الجدران الداخلية، مثلت فيها صور الإنسان والكائنات الحية بأسلوب فني رائع وعبر.

## الفصل الرابع

### العمراء الإسلامية في العصر العباسي

أولاً.. تمهيد تاريخي:

ينتسب خلفاء الدولة العباسية كما هو معروف إلى أولاد العباس عم الرسول (ص) وأحفاده الذين أفادوا من أخطاء الأمويين ونفقة المعارضين والناقدين والمشتبئين ضد هم فكتروا مع أبناء عمومتهم من أولاد علي بن أبي طالب (رض) وأحفاده. وكان هؤلاء في نظر الكثرة من المسلمين أصحاب الحق بالخلافة، لا سيما بعد الخلفاء الراشدين (رض). وبالتالي فإنهم يعتقدون أن خلفاءبني أمية مغتصبون للسلطة، تجوز محاربتهم. وهكذا قامت في وجه الأمويين فتن وثورات عديدة كان آخرها تلك التي قادها البيت العباسى. وسبقتها حركة سرية منظمة كانت الحمية الواقعة بالقرب من خليج العقبة في الأرضى الأردنية مقراً لها. وكانت الكوفة وخراسان البيئة الصالحة لانتشار الدعوة.

ومن هذه المواقع كان الدعاة ينتشرون لإثارة عامة المسلمين ضد الأمويين والدعوة لبني هاشم أو للرضا من آن محمد بدلاً عنهم.

ولقيت الدعوة دعماً كبيراً في الولايات الشرقية، وانطلقت الشارة الأولى من أرض الفرس وخراسان على الشخصوص. قادها زعيمهم أبو مسلم الخراساني. وانتصرت الثورة على جيوش الأمويين، وقتل مروان الثاني آخر خلفاءبني أمية. تم ذلك في عام ١٣٢هـ/٧٤٩م.

وبويع أبو العباس (١٣٣هـ-٧٥٤م) ليصبح الخليفة الأول في مدينة الكوفة التي عدت العاصمة الأولى الجديدة. وحكم أبو العباس الذي لقب بالسفاخ أربع سنين. وطُرد خالها أركان الدولة ثم تولى بعده على الخلافة رجال عظام أمثال أخيه أبي جعفر المنصور بن العباس (١٣٧هـ-٧٧٥م الخليفة الثاني) والمهدى بن المنصور (١٥٩هـ-١٦٩هـ/٧٨٥-٧٧٥م الخليفة الثالث) والهادى بن المهدى (١٦٩هـ-١٧٠هـ/٧٨٦-٧٨٥م الخليفة الرابع) وهارون الرشيد بن المهدى (١٧٠هـ-١٩٤هـ/٧٨٦-٧٨٦م الخليفة الخامس) والأمين بن الرشيد (١٩٤هـ-١٩٨هـ/٨٠٩-٨١٣م الخليفة السادس) والمؤمن بن الرشيد (١٩٨هـ-٢١٨هـ/٨٣٣-٨١٣م الخليفة السابع) والمعتصم بن الرشيد (٢١٨هـ-٢٢٨هـ/٨٤٢-٨٣٣م الخليفة الثامن) والواشق بالله بن المعتصم (٢٢٨هـ-٢٣٣هـ/٨٤٧-٨٤٢م الخليفة التاسع).

وبانتهاء خلافة الواشق بالله بن المعتصم عام ٢٣٣هـ/٨٤٧م ينتهي القرن الأول من الخلافة العباسية أو ما تعارف عليه المؤرخون بالعهد العباسي الأول. وتلاه عهد سادت فيه الفوضى وضعفت سلطة الخلفاء وقوى قادة الجيش من المرتزقة الأتراك والفرس وتجزأت الدولة.

ويبدأ هذا العهد بخلافة المتوكل بن المعتصم (٢٣٣هـ-٨٤٧م الخليفة العاشر) الذي انتهت خلافته بمقتله على أيدي قواد جيشه الأتراك. وكان هذا الحدث بداية زوال هيبة الخلافة. وتعرض أكثر الخلفاء بعد للقتل أو التعذيب أو الخلع، ومن سلم منهم لم يكن يملك سلطة حقيقة. واستمر الحال كذلك إلى أن

المساجد والقصور حذاً ليس في أي مجتمع آخر، ويفي للتدليل على ذلك أن نستشهد بقول (المتوكل) حين احتفل بالانتقال إلى قصره الجديد في الجغرافية: "الآن علمت أني ملك؛ إذ بنيت لنفسي مدينة سكنتها".<sup>١٩٣</sup> وعلى صعيد العمارة الدينية في العصر العباسي فقد أكثر العباسيون من بناء المساجد والمساحات الضخمة والأسوار العالية والماذن الفريدة التي لم يعرف مثيلها من قبل في العمارة العربية وهي المئذنة المعروفة بالملوية في جامع سامراء وجامع أبي دلف والتي تأثرت بها مئذنة جامع ابن طولون بمصر والذي شيد على غرار جامع سامراء.

وعلى صعيد العمارة المدنية فقد اهتم العباسيون بإنشاء القصور الضخمة الخمسة التي تشهد بالإبداع المعماري مثل قصر الجوسم الخاقاني وقصور المتنوك في مدينة سامراء مثل قصر المختار والوحيد وقصر بلكورا وكذلك قصر الأخضر الذي يعد من أحد روائع العمارة العربية الإسلامية.<sup>١٩٤</sup>

(الشكل ٢٩)

#### ثانياً.. خصائص العمارة الإسلامية في العصر العباسي:

مع إنشاء المدن وتشييد العمائر ينتمي فن العمارة، وينطهر، وتتحدى المباني مظهراً خاصاً يميزها عن العمائر العربية الإسلامية التي شيدت من قبل، يضاف إلى ذلك ما حدث من المتغيرات إثر قيام الدولة العباسية، كانت نقل مركز الدولة من دمشق إلى بغداد، وما تبعه من تلوّن مظاهر الحضارة كلها بلون البيئة الجديدة، وهي بيئة لها مقوماتها الجغرافية والبشرية، ولها تقاليدها وأدواتها الموروثة. وهكذا ظهرت أعمال فنية وعمائر عباسية متأثرة بالفنون الفارسية والرافدية، تماماً كما تأثرت نظم الحكم والمظاهر الأخرى للحياة بالعادات والتقاليد الفارسية، ولكن لا تنافق مع من يبالغ من المستشرقين لدى الحديث عن هذه التأثيرات إلى حد قول ابن الخطفاء من (بني العباس) أصبحوا ورثة الأكاسرة ملوك المدائن (كتزيفون).

إذن، فالعمارة العربية الإسلامية التي وُضعت أساسها في العصر الأموي سلكت مرحلة جديدة في طريق التطور بعد قيام الدولة العباسية، وتظهر ملامح هذا التطور في العمائر التي ما تزال باقية حتى اليوم، على مستويات مختلفة من الصيانة في العراق والولايات الإسلامية الأخرى التي تأثرت إلى حد ما بالاتجاهات الجديدة التي انتقلت إليها من العوامل الجديدة ممتزجة مع ما تمتلكه من تقاليد محلية. وسيتم التعرف على خصائص العمارة العباسية في تصميمات هذه العمائر، وفي عناصرها المعمارية والزخرفية.

فمن حيث التصميم اتصف العمائر العباسية عامة كالقصور والمساجد:

- بالضخامة والمساحات الكبيرة التي تحتلها.

١٩٣ - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٩٣/.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٨٢/.

١٩٤ - مرسى، فن العمارة العربية و أشهر معالمها (دراسة)، ص/١١١/.

وباتساع باحتها إذا ما قورنت بمثيلاتها في العصر الأموي.

وسمكية أسوارها المدمعة غالباً بالأيراج الدائرية الشكل، أو بالدعامات الجدارية.

كما تميزت القصور خاصة: بتنوع أحجتها، واتساع حدائقها، ووجود السراديب، وبرك الماء.

وتميزت القاعات الهامة بالقباب الفخمة.

#### ١. العناصر المعمارية:

- التسقيف.. شاع فيه استخدام الأقباء المعقوفة.

والسقوف المستوية المحمولة على العصائد المستطيلة المبنية بالأجر بدلاً من الحجرية التي أصبح استخدامها محدوداً.

والأواوين.

والأيواب المقطرة المعقوفة بالأقباء.

• العقود.. ظهر منها شكل جديد عُرف بـ(القوس العباسي) الذي اعتمد مؤرخو العمارة تسميته بـ(القوس الفارسي)، وهو من النوع المدبب أو المكسور، لكنه يختلف عن ذلك الذي استُخدم من قبل، الذي يتكون من قوسين يُرسمان من مراكزين واقعين على خط الأقطار، وبتبنيه قوساً نصف دائري جرى كسره من منتصفه، أما العقد العباسي فيتألف من (٤) أقواس ترسم من (٤) مراكز: قوسان متباينان في الأعلى قريباً من المستقيم، لهما نصف قطر كبير، وقوسان في الأسفل متباينان أيضاً، لهما نصف قطر أصغر، وهذا أكثر تحديداً، ويوجد مثلاً واضحاً لهذا القوس الجديد: في باب بغداد في مدينة الرقة (الرافعة) السورية، وفي حصن الأخيضر في بادية العراق، وفي قصور سامراء وجسامها، وفي عمارتين كثيرة شُيدت فيما بعد في إيران وغيرها، وسيطر العقد العباسي ليصبح قسمه العلوي أحياناً قوسين متعرين قليلاً أو كثيراً، يُرسمان من مراكزين خارج العقد، وذلك في عمارتين الأقاليم الشرقية، والعمائر العلمانية فيما بعد خاصة، هذا إلى جانب عقود لها وظيفة زخرفية أكثر منها إنشائية كالقوس المفصص والمحاريب الجدرانية.

• المآذن.. يذكر في عداد العناصر الجديدة أو المتطرفة المتذنة الملوية التي ظهرت في (٣) مساجد كبيرة:اثنان منها في سامراء هما: (جامع سامراء)، و(جامع أبي دلف)، والثالث في مصر هو (جامع أحمد بن طولون)، ويقال إن هذا النوع من المآذن متاثر بهندسة الزيارات التي تُشاهد في المعابد القديمة في العراق في عهد حضاراتي بابل وآشور.

#### ٢. العناصر الزخرفية:

أما عناصر الزخرفة التي استُخدمت لتزيين العمارتين فأهمها النقش الجصي، أو الرسوم الملونة على الجص الصقيل، والخشب المزخرف بالنقش أو بالأصبغة.

\* مواضيع الزخرفة.. اقتصرت على الأشكال الهندسية والنباتية التي لاحظ فيها دارسو الفنون (٣) طرزاً تطورت بين نشأة سامراء وأواخر أيامها، وتتميز من بعضها من حيث: أشكال الأوراق والعروق النباتية، واستخدام الأرضيات، وطريقة الحفر، ودقة التنفيذ.<sup>١٩٥</sup>

\* التصويب.. استخدم في القصور، فقد عثر في بعض قاعات الجوسق الخاقاني في قصر (المعتصم) على صزر بالألوان للإنسان والحيوان والطير في مشاهد صيد ورقص وشراب وموسيقاً.<sup>١٩٦</sup>

\* مواد البناء.. ولا يخفى ما لمواد البناء من تأثير في توجيه المعماري، وجعله يختار العناصر الإنسانية والأساليب المعمارية والزخرفية المناسبة لها، والمتناثمة معها، فمن متغيرات هذا العصر مواد البناء التي أصبحت من اللَّين والأجر كمادة رئيسة اعتمَد عليها بدلاً من الحجر، ومن المعروف أنَّ العراق وأجزاء كبيرة من إيران وببلاد ما وراء النهر (التركستان وأفغانستان)، كانت تعتمد مِنْ القم اعتماداً كبيراً على اللَّين والأجر؛ لعدم توفر المقالع الحجرية الصالحة للبناء، وهذا من دون شك أقل قوة ومقاومة من الحجر، كما أنها لا يعطيان العمايز المظاهِر الجاذب؛ لذا كان لا يُستغنِي عن تغطيتها بطبقة من الجصَن القابل للزخرفة والنقوش، وهذا غداً الأجر وكسوته من النقوش الجصَن سمة من سمات العصر، وجاءَ لا يتجزأ من خصائص العمارة العباسية، لا في العراق فحسب، بل انتشر في أكثر بلدان العالم الإسلامي.<sup>١٩٧</sup>

### ثالثاً.. النشاط العراني في العصر العباسي:

#### \* عمارة المدن:

##### ١. مدينة بغداد:

ذكر ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان كيف اختار الخليفة أبو جعفر المنصور موقع مدينة بغداد فقال "في بيته عماره بغداد كان أول من مصرها وجعلها مدينة الخليفة المنصور بالله أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ثانى الخلفاء العباسيين، وانتقل إليها من الهاشمية وهي مدينة كان قد اخترتها أخوه أبو العباس السفاح قرب الكوفة وشرع في عمارتها سنة ١٤٥ هـ / ونزلها عام ١٤٧ هـ / وكان سبب عمارتها أن أهل الكوفة كانوا يفسلون جده فلله ذلك من فعلهم فانتقل عنهم برئاد موضعها بني فيه مدينة، ويكون الموضع واستطرا رافقاً بالعامة والجند، فنرت له موضع قريب وذكر له طبيب هو انه قال لجماعة منهم سليمان بن مجالد وأبي ليوب المزبوني وعد الملك بن حميد الكاتب: ما رأيكم في هذا الموضوع؟ قالوا نزليطيب مواقف فقال: صدقت لكن لا مرافق فيه للرجبة وقد مررت في طرقي بموضع تجلب إليه الميرة والامتنعة في البر والبحر وأنا راجع إليه وبائق فيه فإن

<sup>١٩٥</sup> - الكيلاني، (نورة)، شابوتو، (ميبرة)، العباسيون، الدولة الإسلامية الأولى في اكتشاف الفن الإسلامي في حوض المتوسط، كتاب صادر عن متحف بلا حدود، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧، ص/٥٩، ٧٨/.

<sup>١٩٦</sup> - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٩٤.

<sup>١٩٧</sup> - الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية، خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٨٣، ٨٤/.

المدخل بغرف بلغ عددها في كل مدخل مائة وثمانين غرف منها مائة للجند، حيث تتسع كل غرفة لعشرة جنود وبذلك يكون عدد الجنود في كل مدخل ألف، أما الغوف الثماني الواقية فتحصى للقادرة. أما قلب المدينة<sup>٢٠٥</sup> الذي اشتمل على الدواوين، وقصر الخليفة الذي عرف بقصر الذهب واشتهر بقبته الخضراء، والمسجد الجامع فكان محاطاً بسور داخلٍ مركزي يعد الخط النهائى لاحيائه مركز السلطة داخل المدينة.

ولقد خططت مدينة بغداد تخطيطاً يكفل الأمان<sup>٢٠٦</sup> الخليفة في وقت الخطر ويسهل التوصل إليه في وقت الأمان، وأثر ذلك تأثيراً واضحاً في تخطيط المدينة بصفة عامة وشوارعها وطرقها على وجه الخصوص كما أن السكك الفرعية التي تصب في كل منها كان لها دروب يحكم غلقها لتزيد المدينة قليلاً كذلك فإنه يوجد بالمدينة نفق عمل للخليفة المنصور ذكر أنه أنشئ لكي يمكنه من الخروج من بغداد عند حصارها وينهي بال الخليفة إلى بعد فرسخين منها<sup>٢٠٧</sup>.

مساحة بغداد: اختلف المؤرخون في تحديد مساحة بغداد فحسب إحدى الروايات فإن المساحة تقدر بـ (٧٧ كم) وحسب رواية أنسق الأزدي يمكن حساب مساحة المدينة بحوالي (٤٤,٥ كم) وحسب رواية كل من الخطيب البغدادي وابن الجوزي وياقوت الحموي فإن قطر المدينة يبلغ (٢٦٣٨ م) ومحطيها (٢٠٧ م١٦٠٠٠)

وهكذا نجد في المدينة تنظيماً مدهشاً وتخطيطاً سحيقاً للأبواب والمداخل وتناسباً دقيقاً في توزيع الأسوار والشوارع والأحياء السكنية.

وتشتهر بغداد بعد المنصور، وأضفت إليها فيما بعد ضلوعتان هما الكرخ والرصافة، وعاشت عدة قرون، وغدت من أكبر وأجمل عواصم العالم الإسلامي، وأكبر مركز حضاري في العالم وقتئذ، وقبل أن يدمرها المغول عام ١٥٦ هـ / ١٢٥٨ م.

## ٢- آثار مدينة الرقة (الرقّة):

مدينة أخرى يرجع الفضل في إقامتها إلى الخليفة أبي جعفر المنصور، وهي الرقة الواقعة عند مدينة الرقة على ضفة الفرات اليسرى، كان ذلك عام /١٥٥ هـ / ٧٧٧ م، ولم تكن مدورة كبغداد، بل تشبه حدوة الفرس، وقطرها لا يتجاوز (٠٠١٥٠ م)، وأهم شيء نراه فيها اليوم بقية من سور، وباب فخم يُطلق عليه (باب بغداد)، وهو الباب الوحيد الذي ما زال قائماً في السور، وكانت الأسوار كما وصفها (المقدسي) بقوله: (يسير على متها فارسان) ٢٠٨، يبلغ سمكها (٥,٨٥ م)، وهي مبنية باللبن، ومصفحة

٢٠٥ - عثمان، المدينة الإسلامية ، ص/١٤٢ .

٢٠٦ - العرجي السابق نفسه، ص/١٥٧ .

٢٠٧ - يوسف، (شريف)، تاريخ فن العمارة العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨٢ / ٢٧٧-٢٧٢ .

٢٠٨ - المقسى، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ج٢، ص/١٣١ .

بالأجر، وفي الأسفول مدماكان من الحجر المنحوت، ومزودة بالأبراج الدائرية، كذلك لم يبق من المبني سوى آثار مسجدها الجامع، وما عثر عليه المنقبون من آثار القصور العباسية خارج أسوار المدينة وداخلها<sup>٢٠٩</sup>.

\* السور والأبواب.. ذكر الطبرى أن الرقة بُنيت على نمط بغداد من حيث البوابات والفاصل والربات والشوارع<sup>٢١٠</sup>. ورغم ذلك ليست المدينة مستديرة؛ لأن الجانب الجنوبي مستقيم، وبقية الجدران تشكل حدوة حسان مستدقة ومشوهه قليلاً.

وفي الوقت الحاضر تبعد الرقة حوالي (١كم) عن الفرات الذي كان على ما يبدو يغسل جانبيها الجنوبي، ويبلغ طولها حوالي (١٥٠٠م) من الشرق إلى الغرب، وكذلك من الشيمال إلى الجنوب.

كانت الجدران مزدوجة كجدران بغداد، وبقايا الجدار الداخلي ما زالت في حالة حيدة في الغرب والشمال، وأقل جودة في الشرق، وهناك بعض مئات منه في الجهة الشرقية، وهذا الجدار الذي يبلغ ارتفاعه (١م) في بعض أجزائه الشمالية الغربية، محاط بأبراج دائرية صغيرة على مسافة (٣٥م).

وفي الزاوية الجنوبية الشرقية بقايا برج دائري عظيم يبلغ نصف قطره حوالي (٧,٨م)، و يبدو أنه كان أصم، وارتفاعه من (٧ - ٨م)، يتتألف من مركز من الأجر الطيني، وطبقة خارجية من الأجر المشوي، يبلغ سمكه (٢-٣م) في الأعلى، وتبلغ مساحة الأجر المشوي من (٤٢٦-٢٦٢سم<sup>٢</sup>)، وسمكه من (١١-١٢سم).

وبفضل الخنادق التي حفرها (شلوميرغر) من دائرة الآثار في تموز / ١٩٣٣م، وجد أن ثمانية الجدار الداخلي (٥,٨٥م) بالضبط، والفاصل (٢٠,٨م)، وثانية الجدار الخارجي حوالي (٤,٥م).

أما الخندق فعرضه (١٥,٩م) في الأعلى، ويتناقص إلى (٩,٥م) في القاعدة، وترتکز الجدران مباشرة على التربة الصخرية، ويتألف المدماكان السفليان من الجدار الرئيس من حجر طباشيري أبيض يشبه الجص، ويبلغ ارتفاع كل مدماك (٦٥سم)، و يبدو أن الجدار المؤلف من الأجر الطيني لم يكن مغطى بطبقة من الأجر المشوي مثل الأبراج المغطاة بالأجر المشوي بسمك (٥سم<sup>٢١</sup>). الشكل (٣١)

\* باب بغداد.. يتمتع بأهمية خاصة؛ لكونه يحتفظ بأقدم العناصر المعمارية العباسية بعد زوال بغداد المنصور، ويفلت الانتباه بوقوعه في زاوية السور، وهي الزاوية الجنوبية الشرقية، خلافاً لبوابات المدن الأخرى، ولا نعرف اليوم باباً آخر للمدينة سوى أن (المقدسي) أشار إلى باب آخر يدعى (باب الرها)،

<sup>٢٠٩</sup> الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١١٨.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/٨٨.

<sup>٢١٠</sup> الطبرى، (أبي جعفر محمد بن جرير ثـ٣١٠ هـ٢٢٢م)، تاريخ الطبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ٤، ص/٤٠٦-٤٠٧.

<sup>٢١١</sup> كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص/٢٤٦.

ويقع في الزاوية المقابلة، أي الشمالية الغربية<sup>١١٢</sup>. وتُنسب بعض المصادر بناء باب الـ رها إلى الخليفة هارون الرشيد الذي عُرِفَ عنه أنه أقام في الرقة عام ١٨٠هـ/٧٩٦م<sup>١١٣</sup>.

أقيم باب بغداد في برج مستطيل يقى قسم مهم منه، وأبعد هذا البرج (١٤,٥ × ١٨,٥ م)، وفي جداره الشرقي فتح قنطرة الباب التي تبلغ سعتها (٢٣,١٩ م)، وتألف من عقدتين متراكبين لهما شكل القوس الذي يُسمى (العباسي) الذي يرسم من (٤) مراكز، ووراء الباب دهليز أو غرفة طولها (١٢ م) مسقوفة بقبة متقطعة في الوسط وقبتين طوليتين على جانبيه، وتزدان واجهة البرج التي ترتفع حالياً إلى (١١) م بمحرابين كبيرين على جانبي الباب زال أحدهما وبقي الآخر، وهو مسقوف بعقدتين كبيرتين متراكبين من النوع العباسي، وتملاً باطنه تشكيلات هندسية من الأجر، وفي أعلى الواجهة سلسلة من المحاريب يبلغ عددها (١١) محارباً بقي منها (٨) لأن سور الحنية السادسة يتوافق مع محور مدخل البوابة، فهذا يعني وجود (١١) منها بالأصل، وهذه المحاريب ذات عقود مقصصية (خمسية الفصوص) تعتمد على أنساق أعمدة ملصقة بالجدار. وقد تبين أن مدخل البوابة هذا هو الوحيد في الجدار الخارجي. وهو من نموذج المدخل المنكسر<sup>١١٤</sup>. الشكل (٣٢)

\* المسجد الجامع.. أقيم في القطاع الشمالي من المدينة، وتبلغ أبعاده (٩٢ × ١٠٨ م)، وهو مهدوم، بقيت منه المئذنة وواجهة الحرم المؤلفة من (١١) قنطرة، وترجع إلى أعمال التجديد التي جرت في عهد السلطان نور الدين محمود عام ١١٦٥هـ/١١٥١م.

وقد أظهرت الدراسات مخطط الجامع العباسي وبعض عناصره. ورأى كريزويل أن هندسته كانت مزيجاً بين العمارة السورية والعمارة الرافدية، فقد:

أخذت من جامع دمشق الأموي: تخطيط الحرم بثلاث بلاطاته الموازية جدار القبلة، والسقوف الجملونية. وأخذت من العراق: مادة البناء، أي الأجر، والأروقة المزدوجة ذات الصفين من الأعمدة، والسور المزود بالأبراج الدائرية، وتعدد الأبواب<sup>١١٥</sup>. الشكل (٣٣)

٢١٢- المقسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، جـ ١، ص/١٣٢.

٢١٣- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/٢٤٥ - ٢٤٦.

الريحاوى، (عبد القادر)، حضارة الجزيرة والفرات في العهد العربي الإسلامي، مجلة الحوليات الأثرية السورية، دمشق، ١٩٦٩/١، المجلد ١، ص/٤٩ - ٧٦.

٢١٤- كريزويل، الآثار الإسلامية الأولى، ص/٢٤٩.

٢١٥- المرجع السابق نفسه، ص/٢٥٢ - ٢٥٤.

الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١٢٠.

الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٩١.

## الفصل الخامس

### العمراء الإسلامية في العصر السلاجوفي

أولاً.. تمهيد تاريخي:

استمرت الحضارة العربية الإسلامية في مسيرتها على الصعيد الحضاري في العصر السلاجوفي ٤٢٩-٧٠٧-١٣٨١م، وبقيت اللغة العربية لغة الدين والعلم والثقافة، وعلى أي حال كانت الروح الحضارية واحدة في مناطق واسعة من العالم الإسلامي ضمن العراق والشام والجaz وآسيا الصغرى وأرمينيا وأندیجان وأفغانستان والترکستان، ورغم السلاجقة الأوائل ولا سيما السوزير (نظام الملك) حركة العلوم والفنون والإعمار، وانتقل اهتمامهم بمظاهر الحضارة إلى حكام الأقاليم من السلاجقة والأتابكة، وعمل كل منهم ضمن حدود أملائه على: رعاية العلوم، وإقامة المدارس، وإعمار المدن، فانتشرت العوائـر في كل مكان، وعلى الرغم من الجزئـة وتعذر الدولـات فإنه ازدهـر عدد كـبير من المـدن والعـواصـم وأصـبحـوا مـراكـزـ حـضـارـيـةـ، أـهمـهاـ: بـغـادـ، وـالـموـصـلـ، وـدمـشـ، وـحلـبـ، وـقـونـيـاـ، وـأـرضـرـومـ، وـدـنـيـسـيرـ، وـأـصـفـهـانـ، وـالـرـيـ، وـنيـسابـورـ، وـمـرـوـ، وـبـخارـيـ، وـسـمـرـقـندـ، وـغـيرـهـ.

ومن خلال الحركة العمرانية تظهر المدرسة مؤسسة ثقافية ومعمارية، وينتشر بناء المدارس في كل المدن؛ اقتداء بالمدرسة النظامية التي وضع أسسها (نظام الملك)، إذ شيدت أولى المدارس الإسلامية في عهد وزيره بعد أن كان التعليم يجري في حلقات المساجد.

وانتشر كذلك بناء البيمارستانات، كمستشفيات ومدارس لتعليم الطب، التي لا تكاد تخلو منها مدينة من المدن. وشيد كثير من الخانات كمحطات على طريق القوافل التجارية، أو في المدن كأسواق لتنشيط الحركة التجارية.

وظهر نوع من العوائـر لأول مرة في المـدنـ هوـ الخـانـقاـهـاتـ، مـفرـدـهـ (خـانـقاـهـ) أوـ (خـانـقـاهـ)<sup>٢٦٩</sup>ـ، وـيـبـدوـ أنـهاـ بـيوـتـ للـصـوفـيـةـ وـأـبنـاءـ السـبـيلـ، كالـربـاطـاتـ وـالـتكـاياـ. هـذـاـ فـضـلـاـ عـنـ المسـاجـدـ وـالـتـربـ وـالـحـمـامـاتـ الـتـيـ يـشـاهـدـ كـثـيرـ مـنـهـاـ.

ولكن يلاحظ من استعراض هذه العوائـرـ نـدرـةـ القـصـورـ، وهـيـ ظـاهـرـةـ تـنـيرـ تـساـؤـلـ، هلـ كـانـ زـعـامـ السـلاـجـقـ أـقـلـ اـهـتـمـاماـ مـنـ سـبـقـهـ بـشـيـدـ القـصـورـ الفـخـمةـ، أمـ إـنـ قـرـبـ عـيـدـهـ مـنـ حـيـاةـ الـبـداـوةـ، وـمـيـلـهـمـ إـلـىـ الزـهـدـ وـالـاهـتـمـامـ بـأـمـورـ الدـينـ، جـعـلـهـمـ يـهـتـمـونـ بـبـنـاءـ المـدارـسـ وـالـمـسـاجـدـ أـكـثـرـ مـنـ اـهـتـمـامـهـ بـبـنـاءـ

<sup>٢٧٠</sup> القصور

٢٦٩ - خـانـقاـهـ، لـفـظـةـ فـارـسـيـةـ وـتـأـلـفـ منـ لـفـظـيـنـ، خـانـ وـتـعـنيـ بـيـتـ العـبـادـةـ. 270- Chmelnizkij,Sergej y Blair,Sheila y Bloom, Jonathan, Ascenso y grandeza del imperio selyucida en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein,Markus y Delius,Peter, Edicion espanola, Barcelona,2001, pp/346, 354.

والواقع أن شيئاً بديلاً للتصور بدأ يظهر في المدن، هو القلاع؛ إذ يلاحظ من حياة سلاجقة الشام ومن بعدهم نور الدين محمود، اهتمامهم الخاص بتجديد أسوار المدن وبناء الحصون والقلاع؛ بسبب حالة الحرب والجهاد ضد الصليبيين في المنطقة، ويبدو أن القلاع في المدن غدت المقر الرسمي للحاكم، فهي أقرب إلى ثكنة عسكرية منها إلى قصر منيف، ويتقى هذا مع روح الجهاد والتمسك بشعار الدين والزهد، وهي من الصفات التي اتصف بها نور الدين محمود الذي يمثل إلى حد ما روح العصر واتجاهات الزعماء الأتراك وقتئذ.<sup>٢٧١</sup> (الشكل ٦٣، ٦٢)

**ثانياً.. الاتجاهات الجديدة في العمارة وفنونها:**

حدث تطور ملحوظ في هذا العصر على فنون العمارة؛ إذ ظهرت عناصر جديدة في مجال التخطيط والإنشاء والزخرفة، مما أعطى العماير مظهراً مختلفاً، وهذا يدعو إلى عدّ عماير هذا العصر منتمية إلى ما تُمْكِن تسميته (مدرسة فنون جديدة) من مدارس الفن التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، ولم تكن فنون هذه المدرسة مدحورة في الأقاليم التي نشأ فيها السلاجقة في التركستان وإيران، بل انتشرت في سائر أنحاء تبادل التي سيطروا عليها، ومن ثم تسربت المبكرات الجديدة كالمقبرن صات مثلاً، إلى ما وراء الدود، وظهرت في عماير مصر الفاطمية والمغرب.

ومع ذلك لا توجد عماير العصر السلاجقي ذات لون واحد في الأقاليم كلها؛ إذ لا بدّ من أن تؤدي التقاليد المحلية، واختلاف المناخ، ونوعية مواد البناء، إلى ظهور فروق بين العماير من إقليم إلى آخر، وسيبدو ذلك واضحاً في عماير الأناضول وسوريا التي تختلف عن عماير إيران والتركستان والعراق، على أن بينها جميعاً خطوطاً عاماً مشتركة سيتم شرحها فيما يأتي:

#### ١. تطور تصميم العماير:

- تطور الإيوان.. أصبح الإيوان عنصراً أساسياً في تخطيط مباني المساجد والمدارس والبimar ستانات والمنازل وغيرها، ويمكن تعريف الإيوان ببساطة بأنه قاعة، أو غرفة، ذات (٣) جدران؛ لأن الجدار الرابع مفتوح كلياً نحو الغناء، أو الصحن، وغالباً ما تكون الإيوانات عديدة، وقد تكون (٤) موزعة على الجهات الأربع، وعلى محاور متعددة، وهو ما أطلق عليه (التخطيط المتصالب)، وقد يفتح الإيوان على قاعة خلفية مسقوفة بقبة، كما يشاهد في الجوامع المنشيدة في إيران، ولا سيما في إيوان القبلة (قاعة الصلاة)، وفي عماير أخرى منها رباط شرف، وغالباً ما توجد الأروقة مع الإيوانات محيطة بالصحن، أو ببعضه. حيث يرى أسلاماناً أن هذا التخطيط مقتبس على الأغلب من عماير الغزنويين، ويجب الإشارة أن هذا النوع من التخطيط أقل ملائمة لصلة الجماعة من تخطيط المساجد الأولى ذات البلاطات. ولعل

- ٢٧١- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/١٦٢، ١٦٣.

الريحاوي، العمارة الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٩٩.

السبب في الاعتماد على الإيوان والقبة في قاعة الصلاة هو اقتطاع مكان خاص منها ليكون مقصورة خاصة بالسلطان. بينما يبقى الجناحان الممتدان على جانبي القبة والإيوان لل العامة.<sup>٢٧٢</sup>

• الصحن.. استمر وجود البركة في وسطه عنصراً أساسياً أيضاً، وهي مربعة الشكل أو مستطيلة عامة، ذات حلباً في أركانها، ويلاحظ أن الصحن صغر حجمه في معظم المباني، وظاهر الصحن المسقوف في المناطق ذات الشتاء البارد، ولاسيما في الأنضول.

• التُّرب أو الأضرحة.. زاد الاهتمام بإنشاء التُّرب، أو الأضرحة، مستقلة أو ملحقة بالمبنى الدينية، كالمساجد والمدارس؛ وذلك لتخليل اسم بانيها.

## ٢. العناصر المعمارية:

• الأقباء.. كان التسقيف يعتمد عليها، ولاسيما منها القبوة نصف الأسطوانية والمتقطعة، وكانت تقام بالأجر، أو بالحجر المنحوت، أو بالحجر البشري المغموس بالمونة.

• القباب.. استخدمت إلى جانب الأقباء، ولاسيما في تسعيف التُّرب، وقد تتوعد أشكالها، فكان من بينها قباب هرمية ومخروطية وذوات طبقات مدرجة أو مقرنصة السطح، كالي ظهرت في العراق والشام.

• المآذن.. تتوعد أشكالها الأسطوانية، أو المائلة إلى الشكل المخروطي، أو المضلعة على شكل مجموعة من أنصاف الأعده، بينما استمر الشكل المربع معمولاً به في بلاد الشام.

• المقرنصات.. عنصر إنشائي حل محل الحنية الركبتية في زوايا الانتقال في القبة، ثم أصبح عنصراً زخرفياً يعطي القبة أو عقود المحاريب، أو يحمل شرفات المآذن؛ ولتكوين الأقارب، وبينما أن المقرنص تولد عن الحنية التي تُشبه المحراب بعد تجزئتها إلى مجموعة من المحاريب الصغيرة على طبقات عدّة، ويرجح أن أول استعمال لها كان في جامع يزد في إيران بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي؛ إذ تتحول الحنية الركبتية إلى حنية ثلاثة المحاريب، ثم يظهر هذا العنصر في تربة أرب آتا في تركستان منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، ثم يتطور شكل المقرنصات، وتندو محاريب وأنصاف محاريب متراكبة، وتتعدد أشكالها، ويشيع استعمالها في أنحاء العالم الإسلامي.

## ٣. العناصر الزخرفية:

كانت المبني المشيدة بالحجر المنحوت في الأنضول وسوريا ترثى بالنقش التي تمثل العروق النباتية والأشكال الهندسية والكتابات. ويهدر في مباني الحجر تناوب الألوان في المداميك، وفي العقود والسوافف، وفي الحليات الزخرفية المكونة من خطوط أو أقواس متداخلة.

أما عمارت الأجر فقد كان الاعتماد في زخرفتها على تشكيلات الأجر التي تطورت وبلغت مستوى رائعاً في التعبير عن الزخارف الهندسية التي تتخللها أحياناً الكتابة بالخط الكوفي أو بالثلث. كما ظهر في عمارت الأجر عنصر زخرفي جديد هو الخزف الذي أخذت تُرصع به مباني الأجر، وكان من لون وحيد هو الفيروزي (التركواز)، وسيصبح الخزف في العصور اللاحقة أكثر استعمالاً وتتعدد ألوانه

<sup>272</sup> - O. Aslanapam Turkish art, p.690.

وأشكاله. واستمر استخدام النقوش الجصية التي توجد في الجدران الداخلية<sup>٢٧١</sup> ولا سيما جدران الأجر، وشاء في النحت تمثيل الكائنات الحية كما هي الحال في جسر عين ديوار في الجزيرة السورية. إضافة إلى المغرنصات التي غدت من العناصر الزخرفية، وتستعمل سواء في مباني الأجر والحجر.<sup>٢٧٢</sup>

### ثالثاً.. النشاط العمراني في العصر السلاجوقى:

في هذه العصر يوجد مجموعة مهمة من العمائر ما تزال باقية في مناطق واسعة من العالم الإسلامي ومن أهمها:

#### ١. المسجد الجامع أصفهان:

يمثل جامع أصفهان الكبير أو المسجد الجامع الموجود حالياً عدة مراحل: أولها عباسية من حوالي القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد وكان يشبه في تخطيطه جامع سامراء فشكك بمد من الشمال إلى الجنوب وفيه صحن واسع. وهو مهدى بالأجر.

أما الحرم فكان مولقاً من (١٨) عمدة موازية للقلة في كل صف (٧) أعمدة يقابلها في الرواق الشمالي المماثل للحرم (٥) أعمدة بينما يتكون الرواقان الشرقي والغربي من ثلاثة صفوف على امتدادهما. وكان السقف مستويًا ويعتمد مباشرة على الأعمدة. أجريت على الجامع تعديلات هامة في العصر السلاجوفي تمثل الاتجاهات الجديدة. وهي ما تزال ظاهرة في المسجد الحالي وتتألف العناصر السلاجوقية من قبة كبيرة من الأجر قطرها (١٥) قائمًا فوق تسع قاطر مختلف المقاييس محمولة على عصائد ضخمة ذات مقطع مفصص مكون من أنصاف أعمدة. شيدت هذه القبة أيام المحراب كمقصورة للسلطان في عهد السلطان ملكشاه حوالي عام/٤٦٨هـ/١٠٧٥م

ثم أنشئت قبة أخرى وراء الجدار الشمالي حوالي عام/٤٨١هـ/١٠٨٨م لتكون مصلى لتركان خاتون زوج السلطان ملكشاه. وقد بنيت القباب دون كسوة جصية حيث اعتمد في تزيينها على تشكيلات الأجر. وتشاهد في زوايا الانتقال الخالية الركبة وهي ثلاثة الفصوص كما نشاهد المحاريب المحيطة المزودة بأنصاف الأعمدة تزين جدران القبة. (الشكل ١٤)

وجدد السلاجقة أنحاء من المسجد في إثر الحريق الذي ألم به عام/٥٥٥هـ/١١١٢م فاستبدوا بالحروف الخشبية أقباء من الأجر. وكذلك أضيفت بوابة الشمالية ذات المذن\_be على جانبها. على أن الشيء العام في هذا التجديد هو إحداث الأواوين الأربع على الصحن التي تمثل أقمن الأمثلة، وقد توالى على المسجد الإصلاحات وأعمال التوسيع والزيادات والزخارف فيما بعد معظمها من عهد دول التتار والصفويين. (الشكل ١٥)

- الريحاوى، العمارة فى الحضارة الإسلامية، ص/١٦٤، ١٦٥.

الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها فى سوريا، ص/١٠١، ١٠٠.

- الريحاوى، العمارة فى الحضارة الإسلامية، ص/١٦٨.

يقع اثنان من الأواني خلف البوابتين، أما الجناح الداخلي فيماثل الأول في التصميم، لكنه أكبر حجماً، وفناؤه مزدوج الشكل، ويلاحظ وجود قباب مغطى بعض القاعات، والتي تقع خلف الأواني وفي الأركان. تتميز وجهة الإيوان الداخلي بخارجها الجصية، وبالكتابة الكوفية المزخرفة، والمحاريب الموزعة في الجوانب.<sup>٦٧٨</sup> (الشكل ٦٧)

#### ٥. البيمارستان النوري:

أشئ في دمشق في عهد السلطان نور الدين محمود عام ١٤٥٩هـ/١١٤٥م، ثم وسعته الطيب بدر الدين ابن قاضي بعلبك عام ١٢٣٧هـ/١٢٣٨م<sup>٦٧٩</sup>، ثم قام بترميمه الملك الظاهر بيبرس، ثم السلطان قلاون وابنه الناصر محمد، وأخر ترميم طرأ عليه كان عام ١٩٧٨م، وبعد ذلك أصبح مقرأً لمتحف الطب والعلوم عند العرب.<sup>٦٨٠</sup>

كما شيد السلطان نور الدين محمود بيمارستان آخر في حلب، وثالثاً في حماة، ولكن بيمارستان دمشق أكثرها شهرة وأهمية؛ لكونه ما زال في حال أفضل، شيدته نور الدين ليكون مشفى ومدرسة للطب، وظل كذلك في العصور كلها، حتى مطلع القرن العشرين الميلادي.

قال أبو شامة: "إن نور الدين وقع في أسره بعض أكابر ملوك الفرنج، فأخذ أموال الفداء، وبنى بها البيمارستان، على الرغم من معارضة الأمراء"<sup>٦٨١</sup>، ولعل كثرة الحملات الصليبية دعت نور الدين إلى بناء البيمارستانات؛ لمدواة الجنود في مقراً رسمياً، إضافة إلى البيمارستانات المتنقلة.

وقد زار البيمارستان الرحالة ابن جبير في أواخر القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، ووصفه، وتحدث بإعجاب بما يجري فيه من أنواع العلاج والجراحات، وذكر أن فيه جناحاً للأمراض العقلية، وقال إنه مفتر عظيم من مفاخر الإسلام.<sup>٦٨٢</sup>

جرت توسيعة البيمارستان عام ١٢٣٨هـ/١٢٣٨م، وأضيفت إليه دورٌ كانت حوله؛ ليتسع لعدد أكبر من المرضى.

يتتألف المبني الأصلي من قناء أبعاده (٢٠×١٥م)، تتوسطه بركة ماء مستطيلة أبعادها ٧٧×٨، في أركانها من الداخل حنایا نصف أسطوانية، كأكثر الأحواض المشيدة في ذلك العصر، وهي مبنية بالحجر المنحوت.<sup>٦٨٣</sup>

<sup>٦٧٨</sup> - الريحاوي، المرجع السابق، ص/١٧٨.

<sup>٦٧٩</sup> - ابن أبي أصيبيعة، (أحمد بن القاسم /١٦٦٨هـ - ١٢٧٠م)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ج ٢، ص/٢٥٩.

<sup>٦٨٠</sup> - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ٢، ص/٥٦٧.

<sup>٦٨١</sup> - شهاب الدين المقسى أبو شامة - ١٤٤٥هـ / ١٢٤٨م، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق عزة العطار، مطبعة وادي النيل، القاهرة /١٩٤٧، ج ١، ص/٩.

<sup>٦٨٢</sup> - ابن جبير، الرحلة، ص/٢٩٩.

وتحيط بالفناء السماوي (٤) أبواب متقابلة، و(٤) قاعات رئيسة موزعة في أركان البناء، لها أبواب على الصحن؛ وهذه القاعات بعضها مربع وبعضها مستطيل، وكلها مسقوفة بالعقود المتقاطعة. وللمبني مدخل، مهم يبدأ بباب مفتوح في الواجهة الغربية، وله مصرا عان من الخشب، مصفحان بالنحاس، ومزخرفان بالمسامير النحاسية الموزعة على أشكال هندسية، كتب بها من الأعلى سطر بالخط النسخي، وعلى كل من المصرا عان مطرقة نحاسية جميلة، والمصرا عان مزخرفان من الخلف بالحوشات الخشبية المنقوشة بالزخارف النباتية، وللباب ساكن مؤلف من حجر واحد متقول من بناء قديم يرجع إلى العصر الروماني، ويعلو الباب وجهاً من الزخارف الجصية من عهد نور الدين، تتكون من صفات المحاريب ذات الأقواس المفصصة، وهذه الزخارف متأثرة بزخارف قصر الحير الغربي، وتعلو أقواس المحاريب مقربات دقيقة الصنع تنتهي في الأعلى بالصدفة، وهو مفتوح ضمن دخلة فليلة العمق (إيوان) معقودة بالمقرنصات تؤدي إلى دهليز (دركة)، يقع بين البابين الخارجي والداخلي، ويتكون من قاعة مربعة مسقوفة بقبة عالية تُنطّيها المقرنصات من الداخل والخارج، وهذه المقرنصات تجعلها مع قبة تربة نور الدين أنموذجًا فريدًا في العمائر السورية، وعلى جانبي الدهليز الشمالي والجنوبي إيوانان صغيران معقودان بالمقرنصات، وينتهي الدهليز بالصحن مخترقاً واحداً من الإيوانات الأربع هو الإيوان الغربي. (الشكل ٦٨)

ويعتمد التسقيف على الأقباء، وهي طولية مدبة، أو متقاطعة، أما الدهليز فمسقوف بقبة من نوع جديد يظهر لأول مرة في الشام، تُشبه القباب المخروطية التي ظهرت في العراق، لها شكل مقرنص من الخارج إضافة إلى المقرنصات التي تزيّنها من الداخل، وعلى الكسوة الداخلية كتابة تُؤرخ إصلاحات جرت في عهد السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون وابنه السلطان حسن عام ١٣٤٩هـ/١٤٨١م، لعلها تتعلق بالزخارف الجصية الملونة<sup>٢٨٤</sup>. (الشكل ٦٩)

عقود الإيوانات من الحجر المنحوت من النوع المدبب الذي يرسم من مرکزين، وأكبرها الشرقي، وكان مخصصاً، كما تحدثت الروايات التاريخية، لإقامة المحاضرات ودروس الطب، أبعاده ٧٨٨م، وفي جداره الشرقي خزانتان للكتب؛ وقد ذكر طبيب البيمارستان في عهد نور الدين (أبو المجد بن أبي الحكم) أنه كان يدور على المرضى، ثم يأتي، ويجلس في الإيوان الكبير، ويحضر الكتب، وبعد البحوث الطبية، ويقابل التلاميذ<sup>٢٨٥</sup>، أما الإيوان الغربي ففي داخله زخارف من المقرنصات، وفي جداريه الجنوبي والشمالي يابان صغيران يؤديان إلى قاعتين مستطيلتين تُعدان من القاعات الرئيسية في البيمارستان، ويعلو كلاماً من البابين قوس مدبب من النوع المتجاور، وكل من هاتين القاعتين باب آخر يطل على الصحن، وهناك نوافذ فوق أبواب القاعات التي تطل على الصحن، تقوم مقام العقد العائق

-٢٨٣- المنجد، (صلاح الدين)، بيمارستان نور الدين، دمشق، ١٩٤٦، ص/٣٣.

-٢٨٤- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص/١١٠ - ١١٢.

-٢٨٥- ابن أبي أصيبيعة، عيون الأباء في طبقات الأطباء، ج ٢، ص/١٥٥.

المخفف للحمل عن السواكف، فضلاً عن الإنارة، وهي معقوفة بأقواس خجربية مدبية من النوع المماثل لعقود الإيوانات، وتُعطيها شمسيات ذات زخارف هندسية، تمثل خيوطاً متداخلة وأشكالاً نجمية يحيط بها إطار من الزخارف النباتية.

هناك زخارف أخرى متباعدة في وزارة<sup>٢٨٦</sup> الإيوان الجنوبي، تتألف من الرخام الملون، يتخللها محراب مسطح نقشت عليه عروق نباتية متقدمة، ويعلوه قوس تكون فراتاته من الرخام الملون بالتناوب يستند على سورتين حلوانيتين من الرخام، تحتت عليه أقنية حلوانية، ويعلوهما تاجان من النوع الكورنثي المنظور<sup>٢٨٧</sup>، وتملاً زوايا المحراب الخارجية، بين عقد المحراب والمستطيل، حشوة من الفسيفساء الرخامية من النوع المعروف بـ(المشقف)، وتعد استخداماً مبكراً لهذا النوع من الفسيفساء في العمارة العربية الإسلامية، ثم تنتهي الوزارة في أعلىها بشرط من الحجر السماقي اللون والمنقوش بالزخارف، نقشت عليه كتابة تورخ البناء، فقد معظمها، وبقي منها حجر يحمل زهرة الزينق ضمن دائرة، وهي التي تمثل شعار نور الدين<sup>٢٨٨</sup>،

وأخيراً لا بد من ذكر ما قاله العلامة عبد القادر بدران عن البيمارستان، قال: "كان ينام فيه المرضى إلى قرب الثلاث مئة بعد الألف، إلى أن عمرت الحكومة مستشفى الغرباء بمحلة البرامكة"<sup>٢٨٩</sup>.

#### ٦. المدرسة النوعية:

شيد السلجوقية عدداً من المدارس في دمشق وحلب، اندثر أكثرها، وتعد المدرسة التي أنشأها الملك العادل نور الدين حوالي عام ١٦٧ـ٥٦٣هـ / ١٠٩١م في دمشق ضمن أسوارها، من أهم آثار العمارتين الباقية منذ هذا العهد، وهي تضم قبره، إذ توفي سنة ٥٦٩ـ١١٧٤هـ / ١٠٩٠م.

وما تزال المدرسة في حال جيدة، باستثناء إيوانها الشمالي الذي اقتطع منها؛ لتتوسعة الطريق المجاور لها، بوابتها مفتوحة على سوق الخياطين، يليها دهليز ينتهي بصحن المدرسة الذي تتوسطه بركة ماء مماثلة لتي في البيمارستان، وتطل عليه (٣) إيوانات، بينما يحتل الجهة الجنوبية الحرم المستطيل الشكل المقترن على الصحن بـ(٣) أبواب، أوسطها كبير، وفي الركن الجنوبي الشرقي على يسار البوابة تربة السلطان نور الدين التي تضم ضريحه، ويدخل إليها من باب في دهليز المدرسة، وتضم المدرسة كذلك مجموعة من الغرف موزعة على طبقين، يُصعد إلى الطابق العلوي من سلم يدخل إليه من الدهليز أيضاً. الشكل (٧٠)

<sup>٢٨٦</sup> - ما تكتسي به الأقسام السقفية من الجدران.

<sup>٢٨٧</sup> - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٤٩٠-٤٩١.

<sup>٢٨٨</sup> - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج/٢، ص/٥٦٧.

<sup>٢٨٩</sup> - بدران، عبد القادر / ١٤٦١ـ١٩٠٩هـ / ١٩٨٥ـ٢٠٩م، منادمة الأطلال، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط/٢٠٩٥، ج/١، ص/٢٥٩. أما المشفى فقد بني من قبل السلطان عبد الحميد الثاني.

<sup>٢٩٠</sup> - البهنسى، المرجع السابق، ج/٢، ص/٥٦٩.

ويتجلى فن العمارة في قبة المدفن النادر المثال؛ إذ تُعد من زمرة القباب المقرنصة من الخارج كالتي في بعض أضرحة العراق وفي البيمارستان النوري، وتغطي المقرنصات كامل القبة من الداخل أيضاً، تتخللها التواذذ، ويتوجها في القمة قبة صغيرة مقصورة على هيئة الصدفة.<sup>٢٩١</sup> . الشكل (٧١)

#### ٧. مئذنة جامع حلب:

شيدت مئذنة جامع حلب في بداية العصر السلجوقى، أيام قسم الدولة آق سنقر جد نور الدين الذى ولأه ملكشاه على حلب عام ٨٤٨٢هـ / ١٠٨٩م، وهي منبوبة من الحجر الجيد النحت على شكل برج مربع يرتفع (٤٥م)، يقسمه إلى (٤) طبقات أفاريز بارزة، وترى الواجهات عقود مقصورة، وتميّز بزخارف واجهات بدنها، وتنتهي المئذنة في أعلىها بشرفة للأذان محمولة على مقرنصات، ويتوجها قبة صغيرة نصف كروية.<sup>٢٩٢</sup> . الشكل (٧٢)

#### ٨. مدرسة كمشكين في بصرى:

تتصل المدرسة بمسجد قديم أقيم على المكان التذكاري الذي اشتهر باسم (ميرك الناقة)، أي ناقة الرسول ﷺ عند زيارته بصرى في رحلته إلى الشام، وهي ليست بعيدة عن دير (الراهب بحير) المذكور في هذه الرحلة.<sup>٢٩٣</sup>

ويبدو أن حاكم بصرى الأمير كمشكين شيد هذه المدرسة عام ١١٢٦هـ / ٥٣٠م، وهي بناء صغير يتتألف من صحن مربع مسقوف بقبة بقيت منها زوايا الانتقال، وهي هنا جسور حجرية تدرج في الطول بين الزاوية وبين مسقط القبة، وهو أسلوب عُرف في العصر الرومانى في الشام خاصة، وحول الصحن (٤) إيوانات، أكبرها في الجهة الجنوبية حيث قاعة للصلوة مزودة بمحراب، ولهذا الإيوان واجهة على الصحن ذات (٣) أبواب، ومثل ذلك في واجهة الإيوان المقابل، وسقوف الإيوانات مكونة من الربد، وهو ألواح حجرية كبيرة شاع استعمالها في المنطقة في العصور الماضية، وفي أطراف البناء (٦) غرف تفتح أبوابها على الإيوانات، والمدرسة أيضاً مئذنة مربعة الشكل.<sup>٢٩٤</sup> . الشكل (٧٣)

-٢٩١- الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٢ - ١٩١.

الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص ١٠٢ / ١٠١.

-٢٩٢- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٧١ - ٧٣ .

الشافعى، (فريد)، العمارة العربية في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة / ١٩٧٠، ص ١٦٥ / ١٦٠.

-٢٩٣- الحمصى، (أحمد فائز)، رواح العمارة الإسلامية في سوريا، دمشق / ١٩٨٢، ص ٧١ / ٧١.

-٢٩٤- الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ١٩٧ / ١٩٦.

## الفصل السادس

### العمارة الإسلامية في العهد الأيوببي

#### • نكهة تاريخية :

ينتسب الأيوبيون إلى أسرة كردية جاءت من تكريت إلى بلاد الشام، في حاشية الأتابك عماد الدين زنكي (والد السلطان نور الدين) وقد ظهر منها صلاح الدين على مسرح الأحداث، قائداً صغيراً في جيش الشام الذي أرسله نور الدين لحماية مصر من الخطر الصليبي سنة ٥٦٤-١١٦٨م، ثم أصبح مع عمه أسد الدين شيركوه من أبرز القادة، ثم عين وزيراً للخليفة العاضد الفاطمي، والحاكم الفعلي في مصر، وعمد بعد وفاة العاضد سنة ٥٦٧-١١٧١م إلى إلغاء الخلافة الفاطمية، وإعادة مصر إلى الخلافة العباسية، وبعث أخاه توارنشاه سنة ٥٦٩ هـ-١١٧٣م إلى اليمن فضمها إلى مصر، لكن صلاح الدين ظل يحكم مصر نائباً لنور الدين في دمشق، إلى أن توفي هذا الأخير سنة ٥٦٩ هـ-١١٧٣م، فألت إليه السلطة على مصر والشام وما يتبعهما من اليمن والجهاز والجزيرة الفراتية، تابع صلاح الدين سياسة نور الدين بتحرير البلاد المحتلة من قبل الصليبيين حيث حرر القدس إثر معركة حطين سنة ٥٨٣ هـ-١١٨٧م، وعمل على توحيد الأقطار والمناطق في الشام، وحولها في دولة قوية، وتتابع كذلك مهمة الإعمار ونشر التعليم والثقافة، وكان يعترف وخلفاؤه من الناحية

الرسمية بالخلافة العباسية والسلطة السلجوقية، وغدت دولة الأيوبيين في عهد صلاح الدين وأخيه الملك العادل أبي بكر محمد، من أقوى دول العالم الإسلامي وقتئذ، ولكن الذي أضعف من إمكانات هذه الدولة، الصراع على السلطة، والخلاف القائم بين أولاد صلاح الدين أو لا ثم بين أولاد أخيه العادل أبي بكر، وأدى ذلك إلى تجزؤ الدولة وضعفها مع استمرار الحروب مع الصليبيين، وعاشت الدولة الأيوبية حتى عام ١٢٥٨هـ - ١٢٥٩م، السنة التي سقطت فيها بلاد الشام بأيدي المغول بقيادة هولاكو لغزو العالم، وكانت مصر قد خرجت من أيدي الأيوبيين قبل ذلك بعشر سنين، حيث اغتصب السلطنة منهم مماليكهم من قادة الجيش، وحملة السلاح في أيام أولاد السلطان نجم الدين أيوب وزوجه شجر الدر، وبقي أحفاد عم صلاح الدين أسد الدين شيركوه يحكمون حماة تحت سلطة المماليك حتى عام ١٣٤١هـ - ١٣٤٢م، وكان آخرهم الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل المشهور بأبي الفداء، مؤلف كتاب تاريخ أبي الفداء.

### خصائص العمارة الأيوبية

بالرغم من حالة الحرب الدائرة مع العدو الفرنجي، والحملات الأوروبية المتواصلة على فلسطين والمنطقة العربية، فقد شهدت البلاد العربية التي حكمها الأيوبيون نهضة عمت أكثر جوانب الحياة الحضارية، يرجع سببها كما يبدو إلى الاستقرار ورسوخ الوحدة بين الشام ومصر، يشهد على ذلك الحركة العمرانية التي عمت معظم المدن والإزدهار الاقتصادي، والعناية بالمنشآت الدينية والمدارس والبيمارستانات والحمامات والقىساريات:

- ١- يغلب على العمائر الأيوبية طابع التقاشف وعدم الإسراف في الزخرفة بسبب حالة الحرب.

- ٢- تميزت بالقوة واتقان التخطيط والبناء ودقة النسب وجودة العناصر المعمارية والزخرفية.
- ٣- كان الاعتماد على الحجر المنحوت مادة أساسية<sup>(١)</sup>، بينما استخدم الأجر في أماكن محدودة ولا سيما في القباب، ونجد الحجر مستخدماً بمقاييس كبيرة في الواجهات بشكل خاص وفي الأعمدة والتجان، لذا فإن أكثر المباني أصبحت أضخم مما كانت عليه في العهد السلجوقي السابق، وأكثر جمالاً بواجهاتها وببواباتها.
- ٤- كان التسقيف في العمائر الأيوبية، يعتمد على القباب التي تلقت تطويراً ملحوظاً، وأصبح بعضها يقوم على رقبة من طبقتين من المضلعات، تزيد في ارتفاعها وشاع في القباب استعمال الطاسة المحرزة، المكون سطحها من ضلوع مدببة، واستخدمت وسيلة لالانتقال، الحنایا الركينية، والمثلثات الكروية، واستخدمت في التسقيف أيضاً الأقباء، التي أخذت أشكالاً متعددة منها الطولية والمنقطعة، وكانت تبني أحياناً بالحجر المنحوت.
- ٥- حصلت أبواب المباني على عناية خاصة، فجذت مفتوحة ضمن أبواب عاليه فخمة معقودة بالمقرنصات غالباً، وكانت العقود يغلب عليها الشكل المدبب.
- ٦- ومن العناصر المعمارية التي تميزت بها العمائر الأيوبية، التجان المقرنصة وهذا النوع من التجان يظهر لأول مرة في العهد الأيوبي ولا سيما في عمائر بلاد الشام.
- ٧- أما عناصر الزخرفة، فنجد عدم الإسراف فيها ولكننا نجد أنها متقنة الصنعة رصينة في موضوعها، وتحصر في بدايات المباني أو في المحاريب

(١) محمد : العمارة الإسلامية على مر العصور، ج ١، ص ٤١٥<sup>٤٠</sup>

والمنابر، بينما (المقرنصات) التي استخدمت في وظيفتها الإنسانية والتربينية، وكانت جيدة النحت، مصنوعة غالباً من الحجر، نجدها في عقد إيوان البوابات بشكل خاص وفي زوايا الانتقال في القباب وهناك عنصر (التلوبين) وذلك باستخدام لونين بالتناوب، نجده في الأبواب وفي فقرات الانتقال في القباب، كما نجد حجارة السواكف، قد (عشقت) فيما بينها لأول مرة بشكل زخرفي، بحيث جعلت أطرافها المعشقة مقصصقة وهناك في الواجهات حليات منقوشة وكتابات بخط الثلث الجميل أو الكوفي المربع، أما في الداخل فنجد على الجدران (النقوش الجصية)<sup>(١)</sup>، بشكل محدود وفي بقاع صغيرة، أما النقوش (الخشبية) ونجدتها في المنابر وتوابيت الأضرحة، وأحياناً في المحاريب (كمحراب المدرسة الحلوة) الخشبي في حلب وهو الوحيد من نوعه في الشام، كذلك زودت بعض المباني بنوافذ ذات شمسيات من الحص المعشق بالزجاج الملون.

أما ما يتعلق بخصائص العمارة العسكرية: فنلاحظ تطوراً ملحوظاً على فن التحصين، بسبب حالة الحرب، وال الحاجة إلى حماية المدن وإقامة الحصون المنيعة، ويمكننا اعتبار فن التحصين المتمثل في العمائر الأيوبيية نهاية مراحل التطور حيث لم يظهر أي تجديد في العهود اللاحقة، فنحن نجد في عمائر الأيوبيين العسكرية نموذجاً لأرقى ما وصل إليه هذا الفن على المستوى العالمي، وليس ضمن نطاق الحضارة الإسلامية فحسب، وأحسن مثل على ذلك قلعتنا دمشق وحلب.

(١) محمد: العمارة الإسلامية على مر العصور، ج ١، ص ٤١٦.

فوقها قبة، ويوجد عدد من المحاريب بداخلها وخارجها، وهي محاريب بسيطة التكوين، ولها مدخل في جهتها الشمالية، وتستخدم اليوم كدار للقرآن الكريم<sup>٣٨٥</sup>. الشكل (٩٨) خامساً.. العمارة الأيوبية في سوريا:

ازدهرت الحركة العمرانية في الشام لكن أكثرها كان في دمشق، واتسعت رقعتها خلال العصر الأيوبي، وظهرت فيها أحيا سكنية جديدة خارج الأسوار أكبرها محلة الصالحية التي أقيمت على سفح جبل قاسيون الذي بدأ بإعماره لإسكان المهاجرين من بيت المقدس وفلسطين، فغدت مدينة حقيقة تقصدها عن دمشق منطقة البستانين، وكذلك اكتظت المدينة بالعماير من مساجد ومدارس وتراب وبيمارستانات.

ويرجع السبب في هذا الازدهار الملحوظ إلى نزول الأيوبيين من أسرة السلطان (صلاح الدين) في دمشق؛ لسهولة المرابطة فيها، وقربها من خطوط المواجهة مع الصليبيين، ولا تزال أكثر المباني الأيوبية قائمة في حال جيدة تتميز بمظاهرها الجادة، وبواجهاتها الحجرية، وبقبابها المحمولة على رقبة من طبقتين من القصديرات، وبالمآذن المربعة الشكل، وفيما يأتي أهم هذه المنشآت<sup>٣٨٦</sup>.

#### ١. المدرسة العادلية:

مقر المجمع العلمي العربي في باب البريد في دمشق منذ عام ١٩١٩/١٩١٢ـ، شُيدت عام ١٢١٥ـ/١٤١٢م، في عهد الملك العادل (سيف الدين أبي بكر محمد بن أيوب) أخي (صلاح الدين الأصل)، وأكملاها ابنه (المعظم عيسى) عام ١٢٢٣ـ/١٤٢٠م<sup>٣٨٧</sup>. تُعد المدرسة من أهم عمارت العصر الأيوبي من حيث: التخطيط، ورصنانة البناء، والعناصر المعمارية المتقدمة الصنع، وقد طرأ عليها بعض التعديل؛ نتيجة أعمال الهدم والترميم، ولكن أقسامها وعناصرها المهمة ما تزال تحافظ على وضعها الأصيل.

للمدرسة باب يتوسط الواجهة الشرقية، يفضي إلى دهليز رحب مسقوف بقبو، يليه باب آخر على محور واحد مع الباب الخارجي مفتوح ضمن بيوان مربع على صحن سماوي، وفي الجهة الجنوبية من الدهليز باب يؤدي إلى التربة، وباب ثان في الجهة الشمالية من الدهليز يؤدي إلى الطابق العلوي للمدرسة.

والصحن مربع الشكل تحيط به من جهة الجنوب قاعة الصلاة، ومن جهة الشمال بيوان كبير، أما جهة الغرب فكانت تضم مجموعة من الغرف، لكنها جددت مؤخراً، وتشغل التربة الزاوية الجنوبية الشرقية من الصحن.

<sup>٣٨٥</sup>- نجم، كنوز القدس، ص/١٣٩.

<sup>٣٨٦</sup>- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٦١.

<sup>٣٨٧</sup>- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/١٢٥.

<sup>٣٨٨</sup>- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج٢، ص/٣٥٩.



تتميز البوابة بهنديتها الفريدة غير المألوفة في العوامل الأيوبيّة الأخرى، وتتألّف من إيوان يرتفع برتفاع الواجهة، مسقوف بعقد حجري يتوجّه حجر مدلّي كالملفات، يقسم عقد الإيوان إلى قوسين لكلٍّ منها (٣) فصوص.

والإيوان مسقوف بقبتين متاجورتين من الحجارة المقرنصة، وفي صدر الإيوان الباب مستطيل الشكل، مؤلف من حجارة متباوّية بيضاء وسوداء، مزود بإطار مزخرف بالقوابض العديدة، وإطار ثان من الأسنان النافرة، وهذا الأخير شبيه بذلك المحيط بواجهة البوابة الخارجية، حيث يمتد داخل الإيوان حتى أسفل السقف المعقود، وإلى ما فوق ساكن الباب بقليل، ويعلو ساكن الباب حجر تُعطيه الزخارف الهندسية، ويعلوه الطراز، أي المكان المخصص ل نقش الكتابة التاريخية، ويحيط به إطار ذو قوابض نافرة. (الشكل ٨٨)

شيدت الواجهات الخارجية بالحجر الكلاسي جيد النحت ارتفاع مداميكها قرابة (٦٠ سم)، ينتهي في الأعلى بطفل (كورنيش) من الحجر المقولب، وهي خالية من الزخرفة، وفيها النوافذ المستطيلة الشكل، المزودة بشبك حديدي، يعلو سواكهها عقد عائق مخفف للنفخ.

للمدرسة صحن سماوي مربع أبعاده (١٧ × ١٨ م) مبلط بالحجر، وكان يدخل البلاط لوحات ذات زخرفة هندسية ذات تركيب صخري شطرينجي<sup>٣٨٩</sup>، وفي وسطه بركة ماء مربعة طول ضلعها (٥,٨ م)، وفي زواياها حنايا نصف دائريّة كأكثر برك العهد الأيوبي.

شيدت الواجهات الداخلية المطلة على الصحن من الحجارة الخالية من الزخارف، وفي جهة الشمال الإيوان الكبير، وعلى جانبيه بابان ينتهيان بقوس مدبب، ويعلو كلّاً منهما نافذة مستطيلة، والبابان يؤديان إلى ملحقات المدرسة وغرفها، وفي جهة الجنوب قاعة الصلاة المستطيلة الشكل، كانت مسقوفة بـ (٣) قبواط مقطوعة، وهناك ضمن القاعة محراب مزخرف بمقرنصات تنتهي في الأعلى بصدفة، وتتألّف واجهة المصلى من باب مرتفع في الوسط، وعلى كل من جانبيه شباكان، وكلها تنتهي في أعلىها بقوس مدبب، وفوق كل شباك نافذة مستطيلة الشكل، وهناك في جهة الشرق من الصحن إيوان صغير مفتوح على دهليز الباب الرئيس للمدرسة.<sup>٣٩٠</sup>

وتضم التربة قبر (الملك العادل)، وتعلوها قبة محمولة على عقود جدارية، في كل جدار (٣) عقود متراكبة تبرز بعضها عن بعض لتصغير قطر القبة، ويلي العقود رقبة القبة، وتتألّف من شكل مثلث الأضلاع، وتحتل زوايا البناء مقرنصات، وتنتاوب معها (٤) مجموعات من الشبابيك، في كل منها شباكان، ثم تأتي طاسة القبة، وهي ليست نصف كروية، وإنما متطاولة ذات منطبع مدبب، وللتربة شباكان

-٣٨٩- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٦٢.

390- Gonnella, Julia y Meinecke-Berg, Viktoria, Siria, Palestina y Egipto (ayubies, marmelucos y cruzados) en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp/175, 184.

يطلان على الشارع في الجدار الشرقي، وأخران في الجدار الجنوبي، بينهما محراب شبيه بمحراب قاعة الصلاة، والبناء خال من الزخرفة، تسيطر عليه البساطة<sup>٣٩١</sup>. الشكل (٩٩)

#### ٢. مدرسة الصاحبة:

مدرسة صغيرة في الصالحة، شيدتها أخت السلطان صلاح الدين الأيوبي ربيعة خاتون الملقبة بـ(الصاحبة)، المتوفاة سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م، وتنضم المدرسة تربتها.

تقع البوابة الرئيسية في الجهة الشمالية من المدرسة، مفتوحة ضمن إيوان قليل العمق، وغنية بمقرنصاتها الحجرية المنقنة النحت، وتنتهي في الأعلى بصفة ذات ضلوع شعاعية، ومنها يم الوصول إلى الصحن، وذلك بعد اجتياز الدهليز المسوغ بقبة متقطعة، ومنه إلى الإيوان الشمالي، ومن ثم إلى الصحن ذي الشكل المستطيل والمحاط بـ (٤) إيوانات موزعة حول الصحن على محاور متعمدة، واستُخدم الإيوان الجنوبي قاعة للصلوة؛ إذ هو مزود بمحراب في جداره الجنوبي، وعلى جانبي المحراب شبابك يطلان على الخارج، ويؤدآن القاعة بالنور، أما سائر الإيوانات فاستُخدمت لتدريس الطلاب في المدرسة، وفي الأركان قاعات مربعة الشكل موزعة على الشكل الآتي: اثنان في الزاوية الجنوبية الغربية، ومثلهما في الزاوية الجنوبية الشرقية، واحدة في الزاوية الشمالية الشرقية، ومثلها في الزاوية الشمالية الغربية، واستُخدمت هذه القاعات سكاناً للطلاب، ما عدا القاعة في الزاوية الشمالية الغربية فهي تُربة لربيعة خاتون، والقاعات والإيوانات كلها مسقوفة بالقبوat المتقاطعة، ما عدا قاعة الصلاة، فهي مسقوفة بقبوتين نصفي أسطوانيتين، وهناك بوابة ثانية للمدرسة في الجانب الشمالي من الجدار الشرقي، تؤدي إلى الإيوان الشمالي عبر ممر مستقيم، ومنه درج يؤدي إلى الطابق الثاني للمدرسة، وعلى جانبي دهليز البوابة الرئيسية قاعتان صغيرتان استُخدمنا خدمات الطابق الأرضي، مسقوفتان بالقبوat المتقاطعة أيضاً<sup>٣٩٢</sup>. الشكل (١٠٠)

#### ٣. المدرسة الركبتية:

شيدها الأمير (ركن الدين منكورس) عام ١٢٤٥ هـ / ١٢٢٤ م، وفيها تربته التي ثُلثت الانتقام بقبتها التي تُعدّ ألموظجاً متقناً للقباب الأيوبية، فهي مزودة بربقة من الصغر ذات طبقتين، السفالية مثمنة الشكل فيها (٨) عقود، (٤) منها على قنطر مصممة تتناوب مع (٤) فتحات في كل منها زوج من النوافذ،

٣٩١ - العلبي، (أكرم حسن)، خطط دمشق، دراسة تاريخية شاملة، ط١، دمشق، ١٩٨٩، ص/١٧١.

الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/١٤٩، ١٥٤.

حسن، (زكي محمد)، قانون الإسلام، القاهرة، ١٩٤٨، ص/١٥٥.

٣٩٢ - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ٢، ص/٣٢١.

الريحاوى، العمارة فى الحضارة الإسلامية، ص/٢٦٢.

الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/١٢٦، ١٢٥.

يتتألف البناء من قبأء مربع، تحيط به (٤) بيوانات، ويتوسط المدخل الواجهة الشمالية الشماليّة، وتكتلوا لوجهة نشت عليها (٢) سطرين يخط نسخة يذكر أمر تشييد البيمارستان، وقد غطت بخلة المدخل بنصف قبة من المقرنصات، لكن بوابته مهمة جداً بتصميمها المتميز، فهي ذات بيوان معقود بالمقرنصات، وعقود حجارتها عشقه بلونين بالتناوب، ولبعضها شكل الشرافات. (الشكل ١٠٢)

#### ٥. قلعة دمشق:

قلعة من (٣) قلاع؛ أقامها الملك العادل محمد ابن أبي بكر بن أيوب شقيق صلاح الدين الأيوبي وخليفته على أنقاض قلعة سلجوقيّة قديمة عام ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م، وكانت قلعة مهمة استقاد منها السلطان نور الدين محمود زنكي والسلطان صلاح الدين الأيوبي في الدفاع عن دمشق ضد تهديد الصليبيين سنة ٥٤٢هـ / ١٤٨م، وفي دعم متعة الحكم وسياسة البلاد، ثم وهنت، وهدمت بسبب الزلازل والحروب، وقد تم الكشف عن أقسام كثيرة منها عندما تم ترميمها سنة ١٩٨٥، وتؤكد وجود القلعة السلجوقيّة أقوال المؤرخين، وما تبقى من منشآت أهمها البرج الشمالي الذي جدده صلاح الدين عام ٥٨٥هـ / ١٨٨م، كما ورد في الكتابة عليه، وفيها دفن أول نور الدين، وثانياً صلاح الدين، ثم نُقل جثماناهما إلى قبريهما في دمشق القديمة.

وقد بدأ الملك العادل العمل على بنائها عام ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م بهدم القلعة السلجوقيّة، وإقامة القلعة الجديدة بدلاً منها؛ لتكون أكثر قوّة وحصانة، ولتناسب ظروف العصر<sup>٣٩١</sup>، ومن ثم هي قلعة أيوبيّة، وقد قام المماليك والعثمانيون فيما بعد بإجراء بعض الترميمات والإضافات التي تشهد الكتابات عليها اليوم. تم تشييد القلعة برجاً برجاً، وقد أسهم أولاد الملك العادل بهذا العمل، وكان أول برج أنشئ عام ٥٩٨هـ / ١٢٠٢م هو البرج الجنوبي الغربي الذي تهدم عام ١٢٨٠م / ١٨٦٢هـ، واستغرق بناء الأبراج والأسوار ١٥ عاماً، وهي مبنية من الحجر الأبيض البازلت، وعند الترميم اللاحق استعملت أحجار منحوتة وغشيمة (حجر غير منحوت وغير متناسق الجوانب) أصغر حجماً.<sup>٣٩٧</sup>

كانت القلعة مرئية من جميع جهاتها؛ إذ كان الخندق فجيبة جيدة تحيطه مناطق وطرق خالية؛ ففي الشمال كانت منطقة أصبحت سوقاً للسروجية الذي هدم قسم منه عام ١٩٧٠م. وفي الغرب كان طريق يوازي الخندق، وصفه (بورتر) عام ١٨٥٠م، ثم ردم، وأنشئ سوق الخجا. وفي الشرق ردم الخندق في أواخر العصر العثماني، وأقيم فوقه سوق العصرونية الذي أزيل عام ١٩٨٣م، والتصدت بجدار القلعة محلات تجارية باستثناء باب القلعة الذي أصبح باباً للسجن، وقد أزيلت هذه الدكاكين في نهاية عام ١٩٨٣م. وفي الجنوب كان سوق الأورام يحاذي الخندق، ويترك مجالاً لظهور أجمل واجهات القلعة،

٣٩٦- الريحاوي، (عبد القادر)، قلعة دمشق، منشورات القوات المسلحة، دمشق، ١٩٧٩، ص ١٠٠.

397- Cheyedden P. E., The Citadel of Damascus, UCLA, 1986, p/55.

إلى أن تتم ردم الخندق، وأقيم سوق الحميدية وال محلات التجارية على امتداد سور القلعة من دون أن تلتصق به.<sup>٣٩٨</sup>

ومن ثم تحولت القلعة الزاوية الشمالية الغربية من المدينة القديمة، تحيط بها الأسواق من (٢) جهات، ويحاطي نهر بردى جهتها الرابعة الشمالية، كما أن الخندق المحيط بها ردم في أواخر العهد العثماني. وكان فيها عدّ من المنشآت المهمة، منها: مسجد الصحابي أبي الدرداء، والقصر، ودار المسرة، والبركة، والطارمة؛ وهي قاعة في أعلى البرج الشمالي الغربي أزيلت كما زال أكثر هذه المنشآت.

لذلك تعددت منشآتها وعناصرها الدفاعية وأهمها: الأبراج، والبدنات بينها، والممرات الدفاعية، والمرامي، والرواشن، والسباقات، والشراسيف، والخندق، والجسور المتحركة؛ إذ كانت القلعة منذ بداية إنشائها حصنًا عسكريًا مهمًا.

وكان مقرًا للسلطانين الأيوبيين، وفيها كانت تمارس جميع النشاطات السياسية والاجتماعية، وكانت مدينة محصنة فيها القصور والحمامات والمساجد، وفيها دفن عدد كبير من الملوك، ثم نُقل رفاته خارج القلعة.

وفي العصر المملوكي /٩١٨-٦٥٩هـ/، /١٢٦٠-١٥١٦م/ أصبحت القلعة مقرًا لثواب السلطنة؛ إذ أصبحت القاهرة هي العاصمة، وكان الملوك المماليك يقيمون فيها عند قدومهم إلى دمشق، ثم صار للقلعة نائب خاص مستقل عن نائب السلطنة.<sup>٣٩٩</sup>

وقد أدت القلعة دوراً مهماً في الدفاع عن المدينة، ولا سيما عند غزو المغول سنة /٦٥٨هـ/، /١٢٥٩م/، ولكنها سقطت أمام عُتُقٍ ضربات المنجنيق التي أتت على البرج الغربي والجنوبي، وقد وصف أبو شامة هذا الحصار العنيف وهذا التحريب الخطير<sup>٤٠٠</sup>، وما ليث أن عزي الملك الظاهر (ببرس) بترميمها، فقد كان كثير التردد والإقامة فيها؛ لقيادة معاركه ضد الصليبيين والترار، وعندما توفي عرض جثمانه فيها، ثم نُقل إلى المدرسة الظاهرية، وقد تعرضت القلعة للحصار والتدمير من قبل التترar أكثر من مرة.

كانت أولًا سنة /٦٥٨هـ/، /١٢٥٩م/ بقيادة هولاكو؛ إذ تم الاستيلاء على المدينة من دون قتال، ومنح أهلها الأمان بفرمان من هولاكو، لكن نائب القلعة المسؤول عنها بعد مقتل السلطان رفض النسلم،

٣٩٨ - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٢٢٥.

٤٠٠ - أبو شامة، (شهاب الدين المتّسّى ت ١٢٦٥هـ - ١٢٤٨م)، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق عزة العطار، مطبعة وادي النيل، القاهرة، ١٩٤٧/١، ج ١، ص ١٢١.

واعتصم في القلعة، فحاصره المغول مدة، وضربوها بأكثر من (٢٠) منجيقاً إلى أن استولوا عليها بعد أن تم تدميرها من جهة الغرب<sup>٤٠١</sup>.

وكانت الثانية خلاً اجتياح تيمور لنك دمشق سنة ٤٨٠ هـ / ١٤٩٧م؛ إذ دخل المدينة بالذبيحة، فنهب خيراتها وأموال سكانها وبسي نساءها، وقتل رجالها بعد أن أذاقهم أتون العذاب، واستبقى منهم كل صاحب مهنة أو فن؛ ليأخذه إلى سمرقند عاصمتها، ثم أشعل النار بالمدينة، فظلت تأكلها (٣) أيام، وأما القلعة فاستعدت للحصار، ونصبت المجانيف على سطوح أبراجها، فحاصرها تيمور لنك أشد حصار مدة (٢٩) يوماً، ورمى عليها بمدافع كثيرة، وبنى قبالتها قلعة من خشب، وحين صعد إليها التتار؛ ليقاتلوا أهل القلعة من أعلىها، رمى جند القلعة نفطاً، فأحرقوها عن آخرها، فأقام التتار قلعة ثانية أعظم من الأولى، وصعدوا إليها، وقاتلوا حامية القلعة، ولما ينسى حاميته القلعة من وصول النجدة من مصر، طابت الأمان، واستسلمت، فقتل تيمور لنك رجالها عن آخرهم<sup>٤٠٢</sup>.

ونتحدث كتب التاريخ عن الأسلحة والذخائر التي استُخدمت لضرب القلعة، أو من قبل حاميتها، وكان السلاح القديم هو المجنح الذي ظل مستخدماً بعد اختراع البارود حتى منتصف القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي، وترتدى في النصوص أسماء الأسلحة والذخائر الجديدة، كالمكحلة، أي المدفع، والسهام الخطائية، وقوارير النفط، والكتفيات، أي القنابل.

وتتصف المصادر أحد مجانيق القلعة بأن طول أكتافه (١٨) ذراعاً، وطول سهمه (٢٧) ذراعاً، ويرمي حجراً زنته (٦٠) رطل، وأنه ليس في حصن الإسلام مثله<sup>٤٠٣</sup>، بينما يرد أن وزن هذا الحجر في حصار عام ٨١٢هـ / ١٤٠٤م بلغ (٩٠) رطلاً<sup>٤٠٤</sup>.

وقد عثر في الحفريات الأثرية في القلعة على عدد من الآلات الفخارية، يبلغ حجم الواحدة منها مقدار حجم قبضة اليد، أو أكبر قليلاً، شكلها يشبه كوز الصنوبر، فوهتها تقب صغير، ولا قاعدة لها (أي لا يمكن وضعها على سطح مستو)، تحمل على السطح طبعات دائيرية عددها (٤)، وداخل كل طبعة عناصر زخرفية نباتية، إضافة إلى وجود طبعتين أسفل الفوهة على شكل مثلث يحتوي في داخله عناصر زخرفية هندسية، وتبلغ ثخانة حوافها حوالي (٢ سم) تقريباً، ونلاحظ بعض الشوائب في تركيبة العجينة المصنوعة

٤٠١ - أبو شامة، (شهاب الدين المقتصي) / ٦٦٥هـ / ١٢٤٨م، الذيل على الروضتين، تحقيق عزة العطار، دار الكتب، القاهرة، ط / ١٩٤٧، ص / ١٧٣.

٤٠٢ - ابن تغري بردي، (جمال الدين يوسف ت ٧٤٨هـ / ١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة، وزارة الثقافة، مصر، ص / ٢٤٦، ٢٤٠.

٤٠٣ - ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، ص / ٢٠٣.

٤٠٤ - ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ١٣، من / ٨٥.

منها، إلا أنها تتمتع بمتانة عالية ووزن كبير<sup>٤٠٥</sup>، وهي تمثل قابل يدوية تورخ بين القرنين الخامس والثامن الهجريين، الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين<sup>٤٠٦</sup>.

ولم يكن القلعة في حال السلم إلا مدينة مكتفية بذاتها، ففيها سكانها وجندوها والموظفوون والنقاء، ولها صندوق مال مستقل، وفريها: مخازن للمؤن، وسجن، ومسجد، وطاحون، عدا القصور والبيوت. وفي العهد العثماني أصبحت القلعة مقرًا للإنكشارية والدالية، ويرأسها آغا القلعة، ومهمته استقبال الوالي وتوديعه، كما استُخدمت القلعة سجنًا ومعقلًا، وكانت مجالًا للفتن والاختلافات، ثم أصبحت المقر الوحيد للحامية العسكرية<sup>٤٠٧</sup>. الشكل (١٠٣) مخطط القلعة:

تبلغ مساحة القلعة (٣٣١٧٦ م²)، وهي ذات شكل مستطيل ذي أضلاع غير مستقيمة، يبلغ طولها ما بين (٢٤٠-٢٥٠ م)، وعرضها ما بين (١٢٠-١٦٥ م).

#### وينفتح في جسم أسوار القلعة / ٤ / أبواب:

الباب الشرقي هو المدخل الرئيس، ويؤدي إلى داخل المدينة.

والباب الشمالي، وأمامه جسر، يربطها مباشرة بالخارج.

وبابان للستر ذوا جسور متحركة فوق الخندق في الغرب وفي الجنوب.

ويحيطها من الخارج:

- سور متباين ذو أبراج مربعة ضخمة يبلغ عددها (١٢) برجاً، (٤) منها تحمل أركان القلعة، بعضها مربع، وبعضها مستطيل، أو يأخذ شكل الزاوية عند الأركان، و (٣) منها في الجنوب مستطيلة متباينة، و (٣) أخرى في الشمال، ويرجان على جانبي الباب الشرقي.

- وخندق تم توسيعه بين عامي ١٢١٤-١٢١٦هـ / ٦١٤-٦١٦م، وهو عرض (٢٠ م)، وقد يصل إلى (٥٥)، وقد رُدم إلا من الجهة الشمالية؛ إذ أصبح مجرى لنهر العقرباني فرع نهر بردى<sup>٤٠٨</sup>.

ويحيط بأسوارها وأبراجها من الداخل ممر دفاعي مسقوف ما زال معظمها باقياً<sup>٤٠٩</sup>. الشكل (١٠٤) وفي داخل القلعة باحة واسعة كانت تحمل جانباً منها المنشآت، كمسجد الصحابي أبي الدرداء، والحمام، وقاعة العرش (القصر الأيوبي)، والدواوين، والمدرسة، بقيت آثار منها، ومنشآت أخرى تمتد بين البابين الشرقي والشمالي. الشكل (١٠٤)

<sup>٤٠٥</sup> - سعد، (همام شريف)، اكتشاف آنية فخارية ذات استخدام حربي في مجلة مهد الحضارات، وزارة الثقافة، الددد السادس، ٢٠٠٨، ص ١٥٦، ٢٠٠.

<sup>٤٠٦</sup> - Souvaget J., flacons a vin ou grenades a feu, m lange Greoire, bruxelles, /1949/, Pp./525, 530/.

<sup>٤٠٧</sup> - باشا، (أحمد جودت)، تاريخ جودت، إستانبول، ١٣٠٩هـ ج ٤، ص ٣٥٨.

<sup>٤٠٨</sup> - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٤٢٤/٤٢٤.

<sup>٤٠٩</sup> - الريحانى، قسم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص ٣٢٢/٣٢٢.

وفيما يأتي لمحة عن أهم عناصر القلعة وأقسامها.

• الأبواب .. باب القلعة الشرقي يفتح إلى داخل المدينة، وهو شبيه ببابوص القصور، فقد عقد أبواب الباب بالمقربات الحجرية الجميلة المزخرفة بالعروق النباتية، ونُقش فوق ساكن الباب كتابة من (٧) أسطر هي نصّ لرسوم سلطاني صدر عام /١٣٧٩هـ-١٧٨١م/، وتشاهد في الداخل آثار زخرفة بالألوان ونقوش جصبية، ويحمله البرجان الشرقيان (تم ٣٢ في الشكل ١٠)، وتحمي الدفاعات الخاصة بهذين البرجين (المرامي والرواشن)، ويؤلف الدهلizer فيه محوراً منكسرأ إلى داخل القلعة، ويتصل بمراها الدفاعية، وهو الباب الرئيسي الرسمي للقلعة.<sup>٤١٠</sup>

أما الباب الشمالي فأكثر حصانة؛ لكونه معرضاً للهجوم من الخارج، وقد جعل في البرج الكبير الذي تحيط به مياه العقرباني أحد فروع نهر بردى، والدهليز فيه ينكسر (٥) مرات بزاوية قائمة، وهذا التصميم يعطي الباب قدرة دفاعية كبيرة؛ إذ يضعف المحور المنكسر اندفاع العدو، ويعرضه للإصابات من الدفاعات التي زُودت بها مرات البرج، ولا نظير لهذه الخاصية في القلاع الأخرى، باستثناء باب قلعة حلب الداخلي.<sup>٤١١</sup>

أما أبواب السرّ في الجنوب والغرب، فتعني بلغة العصر أنها أبواب خاصة تفتح عند اللزوم، باستخدام جسر معلق (متحرك) فوق الخندق<sup>٤١٢</sup>؛ إذ ذكرت المصادر التاريخية في العصر المملوكي، ولا سيما في عهد الملك الظاهر (ببرس) أن للقلعة (٤) أبواب.<sup>٤١٣</sup>

• الأبراج .. أهم شيء في قلعة دمشق أبراجها التي تُؤلف القوة الضاربة؛ لذا بُنيت بعناية فائقة، وفاقت في حجمها واتساعها وحصانتها كلَّ ما عُرفَ في الأبراج في الماضي؛ إذ تبلغ مساحة البرج رقم (١) (٢٤٠٢٤م<sup>٢</sup>)، وأما مساحة البرج رقم (١٢) فهي (٣٠٥١٥م<sup>٢</sup>)، أما ارتفاع الأبراج فهوالي (٥٤٢٤م<sup>٢</sup>)، وهي مؤلفة من (٣) طوابق، في كل منها قاعة واسعة مستطيلة مسقوفة بـ (٣) قبواط متقاطعة تفصل بينها عقود حجرية تتسع لعدد كبير من الجنود، وجعلت الأبراج بارزة عن السور؛ ليتاح تزويدها بعدد أكبر من المرامي، وقد بلغ هذا البروز في بعض الأبراج (١٥م)؛ إذ زُودت الجدران البارزة منها عن السور بـ (٥) مرماً في كل طابق، وبذل يكون مجموع مرامي الطوابق (١٥) مرماً، كما زُودت طوابق البرج

٤١٠ - الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص/٣٢٧-٣٢٨.

٤١١ - الريحاوي، قلعة دمشق، ص/١٥٠.

البهشى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/٢٢٦-٢٢٧.

الريحاوى، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص/٣٢٨.

٤١٢ - أبو البقاء الدمشقى، (عبد الله البدرى)، نزهة الأنام في محاسن الشام، القاهرة: ١٣٨٤هـ/١٩٥٦م، ص/٢٦.

٤١٣ - ابن شداد، (القاضى عز الدين ت ١٦٤٧هـ/١٢٦٧م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيره، تحقيق د.سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ط١٦، ١٩٥٦م، ج ٢، ص/٣٩.

٤١٤ - الريحاوى، المرجع السابق، ج ١، ص/٣٢٨.

بمرحاض في كل منها، وفتح باب البرج الرئيس في منتصف ضلعه المتصل بالممر الدفاعي المنسقوف على داخل القلعة، وأحدث الدرج ضمن ثخانة الجدار على يمين الباب، ليؤمن الوصول إلى الطوابق الأخرى، وإلى السطح، وللطابق الثاني باب يصله بالطابق العلوي للممر الدفاعي أيضاً، وسطح البرج أيضاً له قيمة دفاعية كبيرة، فهو محاط من جهاته الثلاث المطلة على خارج القلعة بستائر على طبقتين، فتحت في الطبقة السفلية المرامي الكبيرة، وعددها (٧) مرمي، وكذلك رُكِبت فيها الرواشن التي يدخل إليها من سطح البرج، وعددها (٧) رواشن، بينما زُوِّدت الطبقة العليا بعدد كبير من المرامي الصغيرة عددها (١٥) مرمى، أما الجهة الرابعة من السطح، والمشترفة على باحة القلعة فخالية من الستارة؛ لعدم الحاجة إليها، وعلى السطح كانت تنصب المجانيف؛ لقذف العدو المحاصير القلعة<sup>٤١</sup>، وبذا يكون العدد الوسطي للمرامي والرواشن في البرج الواحد (٣٧) مرمي و(٧) رواشن، وهذا عدد ليس في أبراج قلعة أخرى معاصرة عربية أو صلبيّة، وللبرج درج داخلي يؤدي إلى الطوابق والسطح، ويصل البرج بالأسوار، والممر الدفاعي بطبقته السفلية والعلوي، وكذا بين الأبراج الأخرى من جهة ثانية، مما يسهل عملية انتقال الجنود في أنحاء القلعة<sup>٤٢</sup>. الشكل (١٠٥)

٥٠ الأسوار.. هي جدران ثخينة تصل بين الأبراج، أطلق القدماء على قطعة السور الواقعة بين برجين من السور اسم (البدنة)، وتشكل البدنة سور القلعة، وقد بنيت كما الأبراج بحجارة ضخمة بارزة النحت، وتبلغ تختة الأسوار ما بين (١١,٥-٩,٤م)، وارتفاعها (١١م)، فتحت فيها مرا姆 للسهام موزعة على طابقين، وتعلوها ستارة من الشرافات ذات مرام صغيرة، ويحيط بها من الداخل ممرًّ مسقوف مؤلف من طبقتين يحمي الرماة في أثناء تقلُّم بين الأسوار والأبراج، بينما يحيط بالسور من الخارج خندق يملاً بالمياه في حالات الحصار.<sup>٤١٧</sup> (الشكل ١١٢)

• العناصر الدفاعية.. تشمل على المرامي والرواشن والستائر.

أما المرمى ففتحة في جدار السور، أو البرج، شكلها كما يبدو يشبه إيواناً يتسع لعدد من الرماة يتباينون الرمي، عرضه (٣م)، وعمقه (٢م) تقريباً<sup>٤١٨</sup>، ينتهي في وسطه بفتحة على شكل زاوية سعتها من الداخل (٤٠ اسم)، تتحول في الخارج؛ إذ تتطلّق السهام إلى شَرْضيَّ عرضه حوالى (٠١سم)، وارتفاعه حوالي (١٧٠ سم)، مما يسمح للرامي بالوقوف، بينما كان ارتفاع المرامي الأقدم يقلّ عن (١١م)، ومما يلفت الانتباه في مرامي المستانز كون مرامي الجدارين الجانبيين قد جعلت مائلة نحو الخارج حوالى

<sup>٤٥</sup> - الريحاوي، قمم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى ، ج ١، ص /٣٢٩ .

٤١٦- عمران، (هزار)، دبور، (جورج)، قلعة دمشق، منشورات وزارة الثقافة، المديرية العامة للاشراف والتحف، دمشق، ١٩٩٨، ص ٥١، ٥٥.

١٧- الدار الحادى، قلعة دمشق، جـ / ١٥٥

<sup>55</sup> عبد العليم، *الكتاب المقدس والحياة اليهودية في العصر البابلي*، 197.

(٤٥) درجة، وليس لهذا من سبب سوى جعل السهام موجهة توجيهها أفضلي نحو العدو، وهذه ظاهرة تتفرد بها قلعة دمشق، وتدل على دراسة دقيقة لفن الرمي<sup>٤١٩</sup>.

وأما الروشن فبرج صغير يبرز عن جدار البرج أو السور، معلق فوق عدة بوارز حجرية متراكبة، لكن الروشن نادرة في أسوار القلعة، وأكثرها في الأبراج، ففي كل برج (٥) روشن؛ اثنان منها كبيران في الأركان، ومكانها في الطابق السفلي من السياور، ويدخل إليها من سطح البرج<sup>٤٢٠</sup>، وأهمية الروشن تأتي من السقطات في أرضه التي تصيب منها المواد الفتاكة أو الزيوت المغلية، وهي فتحات مربعة قياسها الوسطي (٤٠ × ٤٠ سم)، يحتوي الروشن على (٣) أو (٥) منها<sup>٤٢١</sup>، وله فتحة في جداره الأمامي للمراقبة شبيهة بشق المرمى. (الشكلان ١١١، ١١٢).

ومن المهم الإشارة إلى ما يرد في أخبار القلعة من ذكر سياور إضافية من الخشب ترتكب في أعلى الأسوار والأبراج عند الحصار؛ لتزيد من قدرة القلعة الدفاعية<sup>٤٢٢</sup>.

ومن العناصر الدفاعية للقلعة الخندق الذي كان يحيط بها من الجهات كلها؛ إذ يتم مليأه بالماء وقت الحرب وسيلة دفاعية تعيق تقدّم الأعداء، ويسهل على الجنود المدافعين عن القلعة عملية التصويب الدقيق ضدهم.

\* المنشآت المدنية.. أما أهم المنشآت التي ما زالت حتى الآن في جامع الصحابي أبي الدرداء الذي يقع في الجهة الشمالية من القلعة، وهو قاعة واسعة تتصل بالبرج الشمالي المتوسط، وعلى جانبيها إيوانان صغيران، وتعلو القاعة قبة، وفي المرمي ضريح ينسب إلى الصحابي أبي الدرداء<sup>٤٢٣</sup>.

أما القصر الأيوبي فبناء كبير يمتد خلف الممر الدفاعي الجنوبي في الجانب الغربي منه بطول (٨٠ م)، وهو مؤلف من طابقين بارتفاع (٥٥ م)، وهو مؤلف من (١) إيوانات في كل طابق، وتُنسق القاعة بعقود منقاطعة، والقاعة الطويلة (القصبة) تمتد من الشرق إلى الغرب مؤلفة من: قاعة أولى مؤلفة من (٦) معازب موزعة على جانحين. وقاعة ثانية مؤلفة من (٩) معازب مسقوفة بعقود منقاطعة، ولها (٤)

-٤١٩- البيهقي، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/٢٢٦.

-٤٢٠- الريحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص/٣٣١.

-٤٢١- المرجع السابق نفسه، ج ١، ص/٣٢٣.

-٤٢٢- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٧٤، ٢٧٥.

-٤٢٣- الريحاوي، قلعة دمشق، ص/١٧٠.

-٤٢٤- ابن كثير، (عمر الدين بن إسماعيل ت ٦٧٧٤هـ/١٣٥٤م)، البداية والنهاية، مطبعة العادة، مصر، ج ١٢، ص/١٩٣٢.

-٤٢٥- أبو البقاء، (عبد الله الدرني المصري)، نزهة الأنام في محسن الشمام، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٨٨م، ص/٣٣٥.

-٤٢٦- أبو البقاء، (عبد الله الدرني المصري)، نزهة الأنام في محسن الشمام، القاهرة، ١٣٨٤هـ/١٩٨٨م، ص/٢٠.

أبواب<sup>٤٤</sup>. وثمة قاعة مؤلفة من (٤) معارض، وتعلو المعرية الأولى الوسطى قبة. أما القاعة الرابعة فمؤلفة من (٤) معارض، وهي ساجوئية<sup>٤٥</sup>.

#### تقنية البناء المستخدمة في تشييد قلعة دمشق:

بنيت أسوار القلعة وأبراجها بحجارة كلاسية صلبة ذات حجم كبير؛ إذ يبلغ متوسط ارتفاع المداميك (٦٢ سم)، وقد نحتت بأسلوب خاص مميز، فجعلت وجوه الحجارة تبرز عن إطارها الصنيل ما بين (١٠ - ٣٠ سم)، وهذا البروز مقطوع قطعاً غير منتظم يعطيه شكل الرؤوس الماسية، وهذا الشكل من النحت للحجارة لم يكن اعتباطياً، ويبدو للمتأمل أثره على المظهر العام؛ إذ يضفي على القلعة مزيداً من القوة والرعب، كما ثبت من الناحية العملية أنه أكثر مقاومة لمقذفات المنجنيق من الحجارة المتساءلة، ولعل مصدر هذه المقاومة يعود إلى أن قباب المنجنيق المكورة حين تصطدم بالجدار تلامس سطحاً أصغر مما لو وقعت على سطح مستوٍ، وتقد بعض مفولوها، هذه التقنية التي تشاهد في معظم قلاع العصر الأيوبي في الشام عريقة، وكان يطلق على مثل هذا النوع من الحجارة (الصورية)، لكن البروز زاد عن المألوف في القلاع الأيوبية، ولا سيما في قلعة دمشق<sup>٤٦</sup>.

#### ٦. مدرسة الفردوس:

ليس من المبالغة بمكان إذا وُضعت هذه المدرسة في عداد رواج العوامل التي أبدعتها الحضارة الإسلامية من حيث تحضيرها الفريد الذي لا يشاهد فيما بني قبلها أو بعدها من المدارس، وعناصرها الإنسانية والزخرفية التي تفرد بها، والمواد المستعملة فيها كالحجر والرخام المتقن النحت، وقد كان الفضل في إنشائها لزوج ملك حلب (الظاهر غازى)، وهي (صيغة خاتون بنت الملك العادل أبي بكر)<sup>٤٧</sup>، جرى تشييدها عام ٦٣٣هـ/١٢٣٥م، وهي ما تزال في حال حسنة في ضاحية المدينة الجنوبية خارج باب المقام في محلة الفردوس<sup>٤٨</sup>. (الشكل ١٣٧)

424- Sauvaget J., *Citadelle de Damas*, op.cit., 2 Art. P./216.

٤٢٥- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/٢٢٦.

الريحاوى، قلعة دمشق، ص/٢٢٣، ٢٢٨.

٤٢٦- الريحاوى، قسم عاليمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ١، ص/٣٤٥، ٣٣٧.

الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٧٦.

٤٢٧- المرجع السابق نفسه، ص/٢٨٠، ٢٨١.

البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ٢، ص/٤٠٤.

٤٢٨- ابن شداد، (التاضى عز الدين ت ٦٨٤هـ/١٢٦٧م)، الأعلان الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزرية، تحقيق د.سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ط ١، ١٩٥٦م، ج ١، ص/٢٦١.

ابن الشحنة، (محب الدين أبي الفضل محمد بن الشحنة الطبى ت ٩٩٩هـ/١٤٩٠م)، الدر المتنبّح في تاريخ مملكة حلب، بيروت، الطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٩م، ص/١١٣.

الطباطخ، (محمد راغب)، *إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء*، المطبعة العلمية، حلب، ط ١، ١٩٢٥م، ج ٢، ص/٢١٣.

إن التخطيط المبكر الذي تميزت به مدرسة الفردوس، والقائم على مبدأ عزل غرب السكن لأول مرة عن مبني المدرسة الأساسي، وذلك بإنشاء أبنية مستقلة كأجنحة سكنية ملحقة بالمدرسة، حقق هذا التخطيط ظاهرة كثيرة من الفوائد ومظاهر النقدم والرقي في تاريخ المدارس، خلافاً لما كان متبعاً وشائعاً في تصميم المدارس التي تجتمع قاعات الدرس والمسجد وغرف السكن والمنافع الأخرى حول فناء واحد مشترك، وهكذا لا يرى تصميم مدرسة الفردوس في أي مدرسة أخرى قبلها ولا بعدها، اللهم إلا مدرسة واحدة مشابهة شيدت بعدها بأكثـر من قرن عام ١٣٦٦هـ / ١٧٤٦م في القاهرة وتُعرف بـ (مدرسة السلطان حسن المملوكي)<sup>٤٢٩</sup>. الشكل (١٠٦)

• تقنية البناء المستخدمة في تشييدها.. المدرسة مشيدة كلها بالحجر الجيد النحت، باستثناء عناصر التسقيف المكونة غالباً من القباب والقباء، ولا تزيد مساحة المدرسة في وضعها الحالي عن (٢٥٠٠م<sup>٢</sup>)، وهي ذات شكل مستطيل منتظم الحدود، أبعاده (٤٤×٥٧م<sup>٣</sup>) .

• التصميم العام للمبنى.. تتميز هذه المدرسة بأنها أول مجمع يبني ليس في حلب فقط، وإنما في العالم الإسلامي، فهي تضم بين أرجانها أبنية متعددة الوظائف (مدرسة، تربية، رباط، زاوية)<sup>٤٣١</sup>، وتصممها يقسمها إلى قسمين متباينين:

جناح جنوبي يتتألف من فناء حوله أروقة أحاطت بها قاعات الدرس من جهاته الثلاث.

وجناح شمالي يتتألف من بناءين شبيه مستقبلتين، هما جناحاً السكن الخاص بالطلبة والمربيين، وقد احتلَّ الركنتين الشماليتين، يفصل بينهما إيوانان، أحدهما مفتوح على فناء المدرسة، والآخر خلفه ينفتح نحو الخارج.

وتتألف المدرسة من صحن مستطيل مبلط بالحجر الأصفر والأسود بأشكال هندسية، في وسطه بركة ماء مئنة الأضلاع، مفصصة من الداخل بمجموعة من الأقواس الصغيرة تجعل منها قطعة فنية رائعة، وفي شمالي بئر مثمن قرب المدخل<sup>٤٣٢</sup>، تحيط به (٣) أروقة من جهاته الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية، قائمة على أعمدة وقاطر، ويقدم كل منها (٤) أعمدة، يأخذ العمودان الزاويان منها شكل نصف عمودين متلحمين بركيزة مربعة، وهذه الطريق استخدمت لأول مرة هنا، والأروقة مفروشة بالرخام الأسود والأصفر، ومسقوفة بسقف مستو حديث<sup>٤٣٣</sup> الشكل (١٠٧)، وفي الجهة الرابعة الشمالية إيوان كبير واسع مفتوح مباشرة على فناء المدرسة بعقد من الحجر، وهو مسقوف بقبو، وهناك إيوان آخر خلفه ينفتح نحو الخارج، وخلف الرواق (٣) قاعات مستطيلة كل منها مسقوف بـ (٣) قباب، وله (٣) أبواب، والقاعة

الغزي، (كامل بن حسين)، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ١٩٢٦م، ج ٢، ص ٢١٨/٤٢٩.

- الرحراوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والقطني، ج ٢، ص ٣٦٤/٤٣٠.

- المرجع السابق نفسه، ج ٢، ص ٣٧٤/٤٣١.

- الجaser، (لبياء)، مدارس حلب الأثرية تاريخها وعمارتها، حلب، ١٩٩٧م، ج ٢١٠، ص ٢١١/٤٣٢.

- المرجع السابق نفسه، ص ٢١١/٤٣٣.

- المرجع السابق نفسه، ص ٢١١/٤٣٤.

الجنوبية مخصصة للصلبة، وعلى جانبيها في الأركان غرفتان مربعتان لعلهما خصصتا لتكونا تربتين، وهم تتصلان بباب خاص مع قاعة الصلة من جهة، ومع القاعتين الآخرين اللتين كانتا مخصصتين للتدريس من جهة أخرى، وقد سُقِّت القاعات كلها بمجموعة من القباب عددها (١١) قبة؛ إذ إن الاعتماد الكلي كان على القباب في تسقيف الوحدات، ويظهر ذلك لأول مرة في عماز بلاد الشام، فقد سُقِّت كل قاعة من القاعات الكبيرة على (٣) أحواء مربعة بواسطة العقود الحجرية، وتلاحظ عنابة خاصة بخراشن الكتب المفتوحة في جدران القاعات الثلاث والإيوان الشمالي<sup>٤٣٤</sup>، وقد عَزَّلت أماكن السكن وغرف الطلاق والمدرسين في جناحين خاصين يحتلآن الركبتين الشماليتين، ويتتألف كل جناح من دار شبه مستقلة مؤلفة من فناء سماوي وإيوانات وغُرف مختلفة الأحجام، سُقِّت كلها بواسطة القباء في الطابق الأرضي، ويرجح أن تكون هناك غرفة صغيرة أخرى في الطابق العلوي الذي يُؤكَد وجوده سُلَم حجري في كل من الجناحين، ويتصل الجناحان بالمدرسة بواسطة ممر ضيق مسبوق، ويحوي هذا القطاع الشمالي، إضافة إلى جناحي السكن، مداخل ودهاليز ووحدات أخرى للخدمات المختلفة، وهو يختلف عن القطاع الجنوبي من حيث الشكل العام والتصميم والعناصر ووسيلة التسقيف، وهذا سببه اختلاف الوظيفة والمتطلبات لكل من القطاعين الجنوبي والشمالي.

أما بوابة المدرسة الرئيسة فقد جُعلت في الجهة الشرقية، وهي على شكل إيوان فخم معقود بالقرنصات الحجرية، يليه دهليز يمتد على محور منكسر في اتجاه الصحن، وفي الجهة الشمالية من ظاهر المدرسة إيوان كبير خلف الإيوان الشمالي الذي ينفتح على فناء المدرسة، وهذا الإيوان الخلفي ينفتح نحو الخارج، وبجانب الإيوان الخلفي الشمالي عناصر غامضة لعلها تُؤَلِّف جزءاً من وحدة معمارية غير مكتملة البناء، أو متهدمة، وقد عَدَ بعضهم الغرض من هذا الإيوان الخلفي استخدامه لتعليم القرآن، وأن له ما يُشبهه في المدرسة المستنصرية في بغداد، وقد يكون كما يبدو مصلى صيفياً، أو مصلى للجناز، ولكن هناك من يرجح أن يكون الإيوان الخلفي مفتوحاً من الأصل على فناء آخر يختص بالمدرسة، ويؤدي ذلك وجود مداخل لدهاليز على جانبي الإيوان الخلفي تؤدي إلى المدرسة وعلى الأجنحة السكنية، وشكل فتحاتها ليس من الشكل المألوف في البوابات الخارجية، بل هي فتحات داخلية، وكذلك فتحة الإيوان، وكل ذلك يفترض وجود فناء أو حدائق تتقدم هذه الجهة من المدرسة زالاً مع منشآت أخرى كانت تحيط بها، أو إنه لم يكتمل تنفيذ هذا الجناح من المدرسة أصلاً<sup>٤٣٥</sup>، وهناك مدخل ثانوية تشاهد في الجهة الشمالية على جانبي الإيوان الخارجي، ومن الممكن أن يكون هناك فناء ثانٍ كان يتقدم هذه الجهة، وتؤدي هذه المداخل كما يظهر في المخطط الرئيس إلى صحن المدرسة وإلى جناحي السكن عن طريق دهاليز ضيقة مسقوفة بالقباء الطولية.

وتتسم العناصر المعمارية لمدرسة الفردوس بالتناسق والإتقان، ساعد على ذلك استعمال مادة الحجر وجودة نحته، فمن عناصرها:

<sup>٤٣٤</sup>- الرياحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ٢، ص ٣٧٨/.

<sup>٤٣٥</sup>- المرجع السابق نفسه، ج ٢، ص ٣٧٦/.

- القباب التي اعتمد عليها اعتماداً كلياً في تسييف القاعات لأول مرة في العناصر الإسلامية السورية، واستعملت وساطة للانتقال مثلاً كروية جديدة على شكل مثلث مزدوج، وهذه القباب لا ترتفع كثيراً عن سطح البناء؛ لكنها من دون رقبة، باستثناء القبة المركزية القائمة عند المحراب، والتي تتميز أيضاً بكون طاستها مشيدة بمداميك دائريّة منتظمة من الحجر المنحوت، بينما جعلت طاسات القباب الأخرى من الأجر المطلي بالملاط الكلسي.

- والمقربات التي استُخدمت في زخرفة الأعمدة الحجرية الحاملة لقاطر الرواق منتها شكلاً جديداً من أشكال التيجان يظهر لأول مرة؛ كما استُخدمت المقربات في أركان القبة المركزية، إضافة إلى مقربات البوابة الرئيسية.

- والعقود التي كانت من النوع المدبب الذي يُرسم من مركزين، مكوّنة من فقرات كبيرة من الحجارة المنحوتة، وقد دُعمت عقود الرواق كلها بروابط خشبية زال معظمها، وبقيت آثارها ظاهرة بين تيجان الأعمدة وأرجل العقود.

- وبُرقة الصحن التي تتميز بشكلها ونقطة نحتها عن كثير غيرها، فهي مثمنة الشكل، فُصصت أضلاعها من الداخل؛ لتأخذ شكلاً تزييناً.

وأخيراً، لمدرسة الفردوس شهرة عالمية بسبب محرابها الذي يُصنف في عداد أجمل محرابي العالم الإسلامي من حيث زخارفه، فقد رُصعّت واجهته وباطنه بالرخام الملون، وتتألّف واجهة العقد من شكل هندسي معقد قوامه عقود مفصصة متداخلة من ألوان عده، ويبدو أن هذا الشكل الزخرفي كان أول ظهوره في حلب في المدرسة الظاهرية الجوليّة أو السلطانية عام ١٢٢٣هـ / ١٩٠٤م، ثم انتشر منها إلى أنحاء العالم الإسلامي: في مسجد علاء الدين ومدرسة قرطاجي في قونيا، وقبة السلسلة في القدس، والمدرسة الجعفية في دمشق، وغيرها<sup>٤٣٦</sup>، وهناك مтир إلى جانب المحراب – ليس من أصل البناء – خشبي مدهون له سياج من الخشب، وفوق جلسة الخطيب قبة مخروطية<sup>٤٣٧</sup>. الشكل (١٠٨)

٧- مدرسة ابن العدين:

تقع في المحطة المعروفة اليوم بـ(محلّة محمد بك) غرب (قسطنطيني) في زقاق المدرسة في مدينة حلب. وتقع على مرتفع تطلّ منه على شارع رئيس يفصلها عنه زقاق، ثم أرض ترابية، ويصلّها به درج<sup>٤٣٨</sup>.

وهي من المدارس المرموقة بجودة هندستها وعناصرها المعمارية، وتعرف بـ(المدرسة الطرنطانية) حالياً، لأنها نسبت إلى الأمير سيف الدين طرنطاني نائب السلطنة في العصر المملوكي الذي تولى نيابة

٤٣٦ - حجار، (عبد الله)، العالم الأثري في حلب، منشورات جامعة حلب وجمعية العادات، حلب، /١٩٩٠، ص/٧١.

الجالس، مدارس حلب الأثرية تاريخها وعماراتها، حلب، /١٩٩٧، ص/٢١٢.

الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٢٨٤، ٢٨٢.

٤٣٧ - الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج ٢، ص/٢١٩.

٤٣٨ - الجاس، المرجع السابق، ص/٢٢٢.

## الفصل الثامن

### العمارة الإسلامية في العصر المملوكي (مصر والشام)

أولاً.. تمهيد تاريخي:

امتدت القاهرة في عصر المماليك البحرية أو الأتراك ٦٤٨-٧٨٤ هـ / ١٣٨٢-١٢٥٠ م صوب الشمال، في الطريق التي رسمها لها صلاح الدين الأيوبي من قبل، فهدموا ما تبقى من القصرين الفاطميين الكبارين كذلك لم يتركوا قطعة أرض فضاء داخل حدود القاهرة من جنوبها إلى شمالها، إلا وأقاموا فيها الجامع والمدارس والأضرحة والحمامات والوكالات والأسبلة، ولم تقف في وجههم الأسوار الشمالية بل تخطوها وبنوا المساجد الفخمة، واقتفي أثرهم المماليك الشراكسة أو البرجية ٧٨٤-٩٢٢ هـ / ١٣٨٢-١٥٦١ م فعمروا الصحراء وشيدوا فيها المساجد والأضرحة.

والواقع أن القاهرة تزرت ولبست أبيح حللاً في عصر المماليك الذي يعد العصر الذهبي في تاريخ العمارة العربية الإسلامية بمصر والشام، فقد كان الإقبال عظيمًا على الإنشاء والتعمير حيث عم الرخاء في عصرهم وامتلأت خزائنهم بالأموال، لما كانت تدره عليهم التجارة الشرقية من ثروات وما كانوا يجبونه من مكوس عليها عند دخولها أو خروجها من مصر فعاشوا عيشة البذخ والترف وتسابق السلاطين والأمراء والوزراء في إقامة المساجد الفخمة والقصور الشاهقة واقتدوا بأجمل التحف وأغناها، وما تزال القاهرة تحفظ بالكثير من تحفهم التي تشهد ببراعة الصناع وتفوق الصناعة في عصرهم، وحياة الترف والبذخ التي كانوا يحيونها.

كذلك امتدت أرض القاهرة في عصر المماليك صوب الغرب والشمال الغربي بما طرحته النيل من أرض كونها الطمي الذي يأتي به النيل مع مياه الفيضان كل عام فنشأت أرض اللوق وجزيرة الفيل وشيرا وغيرها<sup>٤٧٢</sup>.

وعلى الرغم من الحروب المتواصلة التي دارت رحاها في أيام المماليك البحرية بين مصر والصلبيين والتنار وعلى الرغم من الثورات الداخلية والفتنة والدسائس فقد استطاع هؤلاء المماليك أن يسجلوا لأنفسهم في تاريخ العمارة والفن العربي الإسلامي صفحات ذهبية تشع من سطورها آيات المجد الفنية بما تركوه من أمثلة رائعة لفنون العمارة والصناعة والزخرفة الإسلامية<sup>٤٧٣</sup>.

<sup>٤٧٢</sup> - عيسى، (شاته)، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ١٩٩٩ م، ص/١٦٣.

<sup>٤٧٣</sup> - زكي، (عبد الرحمن)، الفن الإسلامي، سلسلة كتابك، الكتاب رقم ١٦٤، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨٥، ص/٤٧.

ثانياً.. مميزات العمارة العربية الإسلامية في العصر المملوكي:

أ) هناك خصائص ومميزات للعمارة العربية الإسلامية في العصر المملوكي وهي:

- أن المساجد القديمة لم يكن بها نقش من الخارج إلا كانت الجدران تخلو من الزخارف والرسوم، حيث لم تظهر زخرفة الواجهات للمساجد إلا في أواخر العصر الفاطمي وذلك في واجهة المسجد الأقر، أما مساجد المماليك فإنها تحتوي في العادة على واجهات جميلة ونقوش غائرة وأبواب جانبية وأفاريز مزينة.
- والخاصية الثانية هي تطور المآذن التي أصبحت أكثر رونقاً وجمالاً كما بدأت تبني بحجارة جميلة الشكل وتحتوي على تفاصيل دقيقة وزخارف مختلفة.

- أما الخاصية الثالثة فهي بناء القباب حتى ذلك الوقت كانت القبة الصغيرة فوق المحراب أو فوق المدخل هي أقصى ما استطاعت هندسة البناء أن تجده، والحقيقة أن خلفاء صلاح الدين أوجدوا القباب الكثيرة الكبيرة مثل ذلك قبة الإمام الشافعي ومدرسة الفردوس في حلب.

- على أن المماليك كانوا بحق سادة بناء القباب وكانت جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسها فكان القبر يلاصق البناء الرئيسي، وهكذا بدأت القاهرة منذ عصر المماليك تردد بتلك القباب الجميلة التي ما زالت حتى اليوم تضفي على مبانيها صبغة خاصة، وقد جاءت بعد القباب الصغيرة القديمة التي سلف ذكرها، تلك القباب المنقوشة ثم القباب المغطاة بالزخارف الهندسية المختلفة والنقوش العربية والرسوم الدقيقة وجميعها منقوشة على الأحجار، والواقع أن أروع زخرفة ترجع إلى السلاطين الشراكسة في القرن الخامس عشر الميلادي إلا أن القباب في القرن الرابع عشر الميلادي كانت قد احتلت مكانها اللائق بها بين أهم ما يميز فن البناء العربي الإسلامي.<sup>٤٧٤</sup>

ولم يأل المعماري جهداً في اقتباس كل ما وجده ملائماً لتطوير الفنون المعمارية، والارتفاع بها من أفاليم العالم الإسلامي الأخرى، ويمكن تلخيص خصائص عمارت عصر المماليك ومزاياها في النقاط الآتية:

#### ١. من حيث الهندسة والتخطيط:

ظهرت عمارت ضخمة يمكن أن يطلق عليها اسم (المجمعات) التي تتسم بمساحتها الكبيرة وارتفاعها، وتتألف غالباً من مدرسة وترية وبيمارستان، وتضم أحياناً سبيلاً وكتاباً أيضاً، وتوجد هذه المجمعات في مدينة القاهرة خاصة، من مثل: مجمع (السلطان قلاون)، ومدرسة وحانقة (الأشرف برسباي)، ومدرسة ومسجد (قابتباي)، وظهرت المنشآت ذات الطوابق المتعددة المؤلفة من (٣) أو (٥) طبقات، بينما لم تكن المباني من قبل تزيد على الطابقين، مثل ذلك: وكالة (الغوري)، والرابع التي شبه المجمعات السكنية التي يتجاوز ارتفاع بعضها (٤٠م).

ويكون التخطيط العام للعمائر بأنواعها من بوابة ضخمة يليها دهليز (دركة) يقضى إلى صحن توزع حوله الإيوانات وأقسام البناء الأخرى، ويلاحظ أن حجم الصحن صغير عن ذي قبل في المساجد

<sup>٤٧٤</sup> - بول، (ستاثلي لين)، سيرة القاهرة، ترجمة د. حسن إبراهيم حسن، د. علي إبراهيم حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧ / ١، ص ٥٧.

والمدارس من أجل زيادة مساحة الوحدات المنسقة، وغطّي الصحن أحياناً بقبة، وأحياناً بنور على شكل سقف مستوي رُؤَد في أطرافه بنوافذ عدّة.

## ٢. من حيث العناصر المعمارية:

أعطيت الواجهات وبابات المبني مزيداً من الاهتمام من حيث التصميم والزخرفة، وغدت ذات ارتفاع بالغ، فاغتنمت الواجهات بفتحات الشبابيك والنواوف المصممة ضمن دخلات جدارية شبيهة بالماريب العالية، وغالباً ما توجد النواوف المجمعة المؤلفة من نافذتين فوقهما نافذة مستديرة أو أكثر في عمائر القاهرة خاصة.

وأما البوابات فهي تبرز عن الواجهة أحياناً، على شاكلة ما شاهدناه في العمائر الفاطمية، يتقدمها أحياناً درج مزدوج، له درابزين من الحجر أو الرخام؛ لجعل المبني يرتفع عن مستوى الشارع، والبوابة مؤلفة من إيوان بارتفاع الواجهة، أو يزيد عنها قليلاً، ويوجد على جانبي الإيوان مقعدين، أو مصطبةين، من الحجر أطلق عليها المصريون اسم (المكسلة).

وتعدّ القبة من أبرز خصائص العمارة في العصر المملوكي، وموضع اهتمام كبير، زاد المهندس من ارتفاعها، ونوع أشكالها وخطّها بالزخارف من داخلها وخارجها، واستخدم لزيادة ارتفاعها الرقبة العالية ذات الطبقتين: إدحاماً مضلعة، والأخرى أسطوانية، وزاد أيضاً في ارتفاع طasseلة القبة التي غالب على سطحها الخارجي الشكل المحزر ذو الضلوع الشاقولية، وشاع في التسقيف إلى جانب القبة السقف المستوى المكون من الجسور والألواح الخشبية المزخرفة بالرسوم والألوان.

أما المآذن فلم تعد قاصرة على الشكل ذي المسقط المربع التقليدي، بل أصبحت تتكون من طبقات تتوالى فيها الأشكال المربيعة، فالمضلعة، فالأسطوانية، ثم تنتهي بقبة تأخذ دورها أشكالاً عدّة، بينها البصيلية القائمة على قاعدة تشبه الكأس، وبينها المحزر ذات الضلوع الشاقولية المدببة يطلق عليها بعضهم في مصر (المبخرة)، وكان أول ظهورها في جامع (الحاكم الفاطمي)، وخانقاه (قوصون)، وزاوية الهندود، وهذه المآذن كلُّها في القاهرة، ولم يقف التجديد عند هذا الحد، فابتكر المعماري مآذن لها رأسان في أعلاها؛ لتبدو كأنها مئذنتان، مثل ذلك مئذنة (الغوري) في الأزهر، ومئذنة مسجد (الأمير قاني) بـ(الرمّاح) في القاهرة، كما تعددت شرفات الأذان، فهي متّी وتلّاث، تنتهي الأخيرة بما يسمى (الشاذروان) المؤلف من (٨) سوريات تحمل قبة صغيرة، وزُوِّدت المئذنة من أسفلها إلى أعلاها بعدد من العناصر المعمارية والزخرفية بينها المخاريب والنواوف والعقود المختلفة الأشكال، ويمثل ذلك أحسن تمثيل مئذنة خانقاه (فرج بن برقوق).

أما أشكال العقود فتنوعت إلى حدّ كبير، بينها: نصف الدائري، والحدوي، والمدبب بأنواعه المختلفة، والمخمس الذي يرسم من مركزين، والعباسي الذي يرسم من (٤) مراكز، والذي غالباً قسمه العلوي مقعرأً مما يُعرف بـ(الفارسي)، وقد غال العقد الفاطمي مؤلفاً من مستقيمين متلاقيين، شبيهاً بالزاوية المنفرجة، وهناك أخيراً العقد المفصص، ولا سيما ثلاثي الفصوص، والعقد الشعاعي، أي

المقصص، على هيئة ضلوع غائرة تغطي طاسة المحاريب أو البوابات على شكل الصدفة الذي ظهر في العصر الفاطمي (واجهة مسجد الأقمر)، والعقد الوسائلى الذى شاع استعماله في هذا العصر في مصر والشام، وقد عُثر على أقدم نموذج له في باب الفتوح الفاطمي.

### ٣. العناصر الزخرفية:

بلغت الزخرفة في العصر المملوكي أوجها من حيث الغنى والتتنوع والصنعة الفنية، فالعناصر الزخرفية تغطي البناء في الداخل والخارج، وأهم هذه العناصر:

- اللتوين، والذي يوجد في حجارة المداميك، وفي حجارة السواكف، والأشرطة الزخرفية المتداخلة أو المعشقة.
- والتطعيم بالرخام الملون، أو بالخزف، والصدف، والفصيوف، بأنواعها الرخامية والخزفية والزجاجية.
- والنقشات الجصية، والنقشات الحجرية، التي تتألف حليات هندسية أو نباتية، إضافة إلى نقش الخشب.
- وأشرطة الكتابة العربية بالخطين الكوفي أو النسخي.
- والشرفات التي تتوج الجدران، وقد شاع فيها الشكل الزنبقي إضافة إلى المسنن القديم.
- والمقرنصات التي تشاهد في أماكن عدة، فهي تتوج الأبواب والشبابيك، وتستخدم لحمل شرفات الأذان في المآذن، وعند أطواريف الجدران، وفي القباب، وفي تيجان الأعمدة، وغدت أقواس خلاياها في عمارت القاهرة على شكل زاوية غالباً.
- والفالسي والسبيل المصنوعة من الرخام الملون، الموجودة داخل القاعات أو في الإيوانات كعنصر زخرفي وترفيهي.<sup>٤٧٥</sup>

### ثالثاً: أشهر العماير العربية الإسلامية في العصر المملوكي البحري ١٢٥٠-٦٤٨ / ٥٧٨٤-١٣٨٢ م في مصر:

حكم مصر من الملوك التجاريين أربعة وعشرون سلطاناً تباهى كلّهم بعظم ما شيدوه من مباني حتى استحقوا أن يلقوا بالسلطانين البنائين وألم عمايرهم هي:

#### جامع السلطان الظاهر بيبرس:

هو السلطان الظاهر ركن الدين والدين بيبرس البنقداري الصالحي وإليه ينسب حي الظاهر أحد أحياه القاهرة.

بناء الظاهر بيبرس البنقداري سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م وقد كان الفراغ منه سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م، وطوله (١٠٠) م وعرضه (١٠٠) م<sup>٤٧٦</sup>.

شيد المسجد بالحجر والآجر وبقيت منه أسواره وبولاته الفخمة التي تعتبر تصميمها امتداداً للفن الفاطمي المتمثل في بوابة جامع المهدية وجامعي الحاكم والأقمر من حيث بروزها الملحوظ والمحاريب

<sup>٤٧٥</sup> - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٢٩٩-٣٠٠.

<sup>٤٧٦</sup> - عيسى، القاهرة، ص ١٦٧ / ١٦٧.

غيرهما بارتقاء شكل التراث، وبأن الكسوة الرخامية التي تطوا فتحات الشبابيك مكونة من طبقتين مزمرتين تزيريراً دقيقاً بدلاً من صفة واحدة في غيرها<sup>٥٣٤</sup>، (الشكل) (١٣٢، ١٣١).

أجمل ما في هذه المدرسة المذكورة لأنها تحظى طرازاً فريداً في العمارة العربية الإسلامية بصفة عامة وعمارة العصر المملوكي بصفة خاصة، فهي تختلف تماماً طرازاً ماقن العصر المملوكي البحري والجرائسي والتي كانت في الغالب تتألف من قاعدة مربعة ثم بدن مثمن ثم شرفة ثم بدن استوانى ثم منطقة الجoso يعلوها قبة على هيئة القبة، أما هذه المذكورة فهي مخلطة تماماً حيث أنها ذات مسقط مربع الشكل وتشبه في ذلك مآذن الجامع الأموي بدمشق ومآذن بلاد المغرب، وإن كانت هذه المذكورة التي تتكون من ثلاثة طوابق الأولى مربع الشكل ويتبعها بشرفة محوللة على مقرنصات، والثانية مربع ويتبعها بشرفة أيضاً محوللة على مقرنصات، أما الطابق الثالث فهو مربع أيضاً ويتبعها بقبة فريدة من نوعها حيث تتكون من خمسة رؤوس كمثرية من الخشب يعلو كل منها هلال من النحاس، وقد ظهرت مآذن ذوات رأسين في العهد المملوكي منها واحدة شيدت في الأزهر في عهد الغوري أيضاً والأخرى على مسجد قاني باي الرماح التي يرجع تاريخها إلى عام ٩٠٧هـ/١٥٠١م بينما شيدت مذكورة الغوري عام ٩١٤هـ/١٥٠٤م.

#### رابعاً.. آثار العصر المملوكي في سوريا:

##### ٤. المدرسة الظاهرية:

كان من عادة الظاهر بيبرس أن يأتي إلى دمشق؛ للإقامة فيها في كل عام، ثم ينطلق في حملة من حملاته ضد المغول أو الصليبيين أو الباطنية الإسماعيلية، وكان يُقيم في قلعتها تارة، وفي قصره تارة أخرى، وقد هدم هذا القصر في العهد العثماني، وأقيمت مكانه التكية السليمانية، وقد توفي الظاهر بيبرس في قصره هذا، ودفن في تربته الملحة بالمدرسة الظاهرية.

وأهم شيء فيها الآن التربة والبوابة اللتان ما زالتا باقietين في حال جيدة، بينما طرأ على سائر أجزاء المدرسة وإيواناتها تعديل وتجديد.

أما البوابة فمن أفحى البوابات، مفتوحة في واجهة من الحجر المنحوت، وتتألف من إيوان معقود بالمقربات الحجرية المتنقة التركيب، وطاسة صدفية الشكل، ويطوف بجدران الإيوان شريط من الكتابة بخط الثلث الجميل، ويعلو فتحة الباب المستطيلة عقداً عائقاً من النوع المنخفض مركب من حجارة مشقة ذات لوبيين متباينين.

ويتحتل التربة الزاوية الجنوبية الغربية، وتضم قبر (الظاهر بيبرس) المتوفى سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، وهي قاعة مربعة مسقوفة بقبة ذات رقبة من طبقتين: للسفلى (٨) أضلاع، وللعلية

<sup>٥٣٤</sup> - أحمد، الدليل الموجز لأشهر الآثار العربية، ص/١٨٢-١٨٥.

<sup>٥٣٥</sup> - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٣١٩.

(١٦) ضلعاً، وتمتاز بمحرابها المكسو بالرخام الملون على شكل عروق نباتية، وكذلك بوابة عالية، تتنهى بسجف من الخشب المنقوش بالزخارف النباتية والمموهة بالذهب، ويلي البوابة الرخامية في الأعلى فسيفساء زجاجية شبّهها بفسيفساء جامع دمشق الأموي، أو تقليل له<sup>٣٦</sup>، الشكل(١٣٣، ١٣٤، ١٣٥).

## ٢. المدرسة الجعفية:

عدّ من أجمل مدارس العصر المملوكي، وفيها من الأصلالة في التصميم، والفن في الزخرفة، مما يجعلها أنموذجاً لفنون هذا العصر في العمارة والزخرفة، وقد وصفها مؤرخ معاصر حين اكتمل بناؤها بقوله: "وجاءت في غاية الحسن ليس بدمشق ولا مصر نظير لها"<sup>٣٧</sup>.

**فقدنَ المدارسُ** في دمشق بعد المدرسة الظاهرية، ولعل ذلك كان بسبب ما حدث لمدينة دمشق من دمار وحريق في خلال احتلال (تيمورلنك) لها سنة ٨٠٣هـ/١٤٠٣م، وتظهر بعد هذا التاريخ مدارس في طليعتها المدرسة الجعفية المنشيدة عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م، وبعدها شيدت المدرسة الصابونية عام ٨٦٣هـ/١٤٠٨م، والمدرسة السيفانية التي كانت آخر بناء للمماليك عام ٩٢١هـ/١٥١٥م، وقد زُودت هاتان الأخيرتان بمئذنة على نسق مآذن المماليك، من حيث غناهما بالزخرفة والألوان.

وتتمتع المدرسة الجعفية بأهمية خاصة من حيث تخطيطها وعناصرها المعمارية والزخرفية<sup>٣٨</sup>. وتشير الكتابة المنقوشة على واجهتها إلى أن نائب السلطنة (سيف الدين جقمق) أنشأها عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م، وتسميتها الكتابة "خانقاها وتربة له ولوادته"<sup>٣٩</sup>، وقد أوقف عليها (جقمق) أوقافاً كثيرة منها السوق الذي سمّي باسمه، وما يزال الخان الكائن في سوق (مدحّت باشا) يحمل اسمه، وقد عني (جقمق) قبل مقتله بالمدرسة، فعين لها المدرسين، وزينتها بالقندائل المكتفة، وبأنواع البسط الثمينة، وتذكر المصادر أن المدرسة نهيت عند مقتله، وأخذت أوقافها<sup>٤٠</sup>.

• **مخطط المدرسة..** تشغل رقعة صغيرة من الأرض إلى جوار الباب الشمالي للجامع الأموي ومئذنة العروس، ولعل صغر مساحة الأرض جعل المهندس يبتكر تخطيطاً خاصاً بها، فالمدرسة لها شكل مربع أبعاده (١٦×١٨م)، ويتألف مخططها من مدخل مؤلف من باب ودهليز منكسر يقضي إلى صحن المدرسة، وهو مسقوف، تحيط به أربعة إيوانات، وتربة تحتل الزاوية الشمالية الشرقية.

٥٣٦- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وآثارها في سوريا، ص ١٦٧.

البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ٢، ص ٣٥٥.

الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٣٢٤، ٣٢٧.

٥٣٧- النعيمي، (عبد القادر ت /٩٢٧هـ/١٥٠٣م)، الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، المجمع العلمي، دمشق، ١٩٤٨، ١٩٥١، ج ١، ص ٤٨٩.

٥٣٨- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٣٢٧.

٥٣٩- السخاري، (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللماع، منشورات دار مكتبة بيروت، ج ٣، ص ٧٤.

٥٤٠- الريحاوي، (عبد القادر)، المدرسة الجعفية في دمشق، مجلة الجوليات الأثرية السورية، المجلد العاشر، ١٩٦٠، المقال بالكامل.

أما الصحن فصغير مربع الشكل تقريباً أبعاده (١٣ × ١٤ م)، مسقوف بسقف مستو من الخشب، يرتفع فوق مستوى سقوف الإيوانات، زُود في أعلىه بمجموعة من النوافذ المستطيلة، وهي (٤) في كل جهة، وأرضه مبلطة بالحجارة الملونة والرخام، مزخرفة بأشكال هندسية، تتوسطه بركة مثمنة الشكل من الحجارة المشقة.

وحول الصحن إيوانات تحيط به، وتربة تحتل الركن الشمالي الشرقي مسقوفة بقبة، ويلاحظ أن الإيوانين الصغيرين الشرقي والغربي قد اتصلا بالإيوان الجنوبي، ف تكونت منها جميعاً قاعة واحدة ترتفع عن أرض الصحن بمقدار (٧٥ سم)، على شكل حرف الباء المقلوبة، وهذه القاعة مفتوحة على الصحن بـ(٣) قناطر كبيرة في الإيوان الجنوبي، وقطرة أصغر في كل من الإيوانين الشرقي والغربي، فوق كل منها قنطرتان صغيرتان، وأقواس الإيوانات كلها ذات حجارة ملونة بالتناوب، ومحمولة على عمودين لها تاجان مقرنصان<sup>٤١</sup>، وهو تصميم متكرر يجمع بين مبدأ الإيوانات والأروقة، ويفيد في إيجاد قاعة للتدريس والصلة على هذه الرقعة الصغيرة<sup>٤٢</sup>.

وفتحت في جدران القاعة خزائن الكتب والشبابيك في الأسفل، ونوافذ من الجص المعاشق بالزجاج الملون في الأعلى، وقد حفلت هذه القاعة بزخارف رائعة تشمل وزارة الجدران والحراب، وهي رخامية متعددة الألوان والأشكال في الأسفل، وكسوة جصية في القسم العلوي، ويعطي القاعة سقف مستوى من جسور خشبية وألواح فوقها، وكلها محللة بالرسوم النباتية الملونة والأزهار، يوحى شكلها وأساليبها بأنها مجده في العهد العثماني.

أما الإيوان فيحتل منتصف الجهة الشمالية من المدرسة، ويقع بين غرفتين صغيرتين، وهو قليل العمق، وفي جانب منه باب صغير لدرج يصعد إلى طبقتين من الغرف، ويعتقد أن تعديلاً طرأ على هذا الجانب من المدرسة غير شكل قوس الإيوان، وجعله يشد عن أقواس الإيوانات الأخرى<sup>٤٣</sup>.

أما المدخل فيبدأ ببوابة المدرسة المفتوحة في الجانب الأيمن من الواجهة الشمالية، ويمثل إيواناً مزوداً بمكسلتين، معقود بالمرئنصات التي تتبعي بصدفة، وفي صدر الإيوان فتحة الباب ذات إطار مستطيل مقولب، يعلوه قوس عائق مؤلف من حجارة مفصصة متداخلة ذات لونين أسود وأبيض بالتناوب، ويعطى ذلك شريط من الزخارف، وآخر نقشت عليه الكتابة التاريخية على طول الواجهة، ويلي الباب دهليز مؤلف من غرفة صغيرة مربعة مسقوفة بعقد متقطع يستند في الزوايا على كوابيل من حجارة بارزة، ويتوسط العقد قبة صغيرة صدفية ضمن إطار مثمن الأضلاع، والغرفة المذكورة مزودة بشباك يطل على الخارج، وآخر يطل على الداخل، وباب ينفذ إلى الصحن<sup>٤٤</sup>.

٤١ - الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص ٢٠٤.

٤٢ - المرجع السابق نفسه، ص ٢٠٦.

٤٣ - المرجع السابق نفسه، ص ٢٠٧.

٤٤ - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٣٢٩.

« والمدرسة واجهتان شماليّة وشرقيّة، بنيتاً بمداميك الحجر المتناثرة في اللون سوداء وصفراء، تخللها شبابيك مستطيلة في الأسفل، وطاقات صغيرة في الأعلى، بعضها مسديّر، وبعضها مستطيل ينتهي بعد مدبب، ويخللها شريط من الحجارة المعشقة تتناوب ألوانها، ثم شريط نُقشت عليه الكتابة التاريخية بخط الثلث المذهب النافر الجميل، ويحتل الشريط مداماً، وتنتهي الواجهتان اللتان ترتفعان حوالي (٦٠) بافريز مكون من سلسلة من المحاريب الصغيرة تتوجها شرافات على شكل المشربيات، وقد جعلت ملونة بالتناوب أسود وأبيض».

وفي الواجهة الشرقيّة دخلة قليلة العمق فتح فيها شباك في الأسفل، يعلوّه محراب مُسطّح مقرنص، رُصّع أعلاه بالحجارة الملونة والخزف، وتعلوّه حلية معماريّة تتألّف من خيوط هندسيّة متداخلة من ألوان عدّة، وفي الواجهة نفسها حلية حجريّة فوق الشبابيك تعلّق قرصاً كبيراً يتوسطه شعار (رنك) (الأمير جفّق)، وتحيط به قطع حجريّة منحوتة على شكل أواني الزهر (المزهريّات) بيضاء وسوداء تتناوب في ألوانها، وفي أوضاع رؤوسها، عددها (١٢) قطعة، ويتألّف الشعار من (٣) حقولٍ في العلوّي دوامة، وفي الأوست طاسة كبيرة عليه كأسان صغيران، وفي السفليّ كأساً أصغر، ويلاحظ أن الزاوية الحاصلة من التقاء الواجهتين معروفة في القسم السفلي من البناء، فهي مقطوعة، وتقوم المقرنصات بحل مشكلة الانتقال بين القسمين العلوّي والسفلي<sup>٤٥</sup>.

وأكثر الزخارف توزيع في القاعة الكبرى (قاعة الصلاة)، وفي التربة، وتتألّف من وزارة رخامٍ في غاية الإنفاق من حيث النقوش والأشكال، تحف بها سويريات منقوشة تعلو بعضاً منها أقواس مفصصة، وهناك أقراص نُقشت عليها عروق نباتية نقشاً دقيقاً، ووشيت بالذهب، ويتواءز الوزارة الرخامى شريط من الآيات القرآنية نُقشت بخطٍ نسخي جميل آخره بارزة مُواشأ بالذهب فوق أرضية زرقاء، ويفصل بين الآيات حليات مستديرة من الزخارف النباتية، وتحيط بالكتابات إطار مزخرف بالأوراق النباتية تشبه الرنابق، ولله شريط الكتابة ترخيماً ملون مؤلف من لوحات مستطيلة مولفة من سلسلة من المحاريب الصغيرة، أقواسها ذات ألوان متناثرة، وأرضتها منزلة بالفسيفساء الرخامى المطعم بالصدف، تتألّف منها مواضع هندسيّة، وسويريات المحاريب منقوشة أيضاً، وفي لوحات أخرى يتغيّر شكل القواص، فتتصبّح مفصصة مخططة بالنقوش والتخاريم، ولوحات أخرى مستديرة منقوشة ببراعة مُواشأ بالذهب ضمن إطار مربع، ويملا الفراغ بين الدائرة والمربع زخارف من الفسيفساء الرخامى الناعمة المطعم بالصدف أيضاً.

وأجمل شيء في هذه القاعة المحراب الرخامي الذي ألقن تصميمه وزخرفته، يأتي في وسط هذه الكسوة، ويُعد آية في الجمال، وقد جمع أنواع الزخارف كلها التي عرفتها المحاريب، فالحننة كُسيت بألوان طولية من الرخام الملون، تخللتها أواحة مزخرفة مطعمّة بالصدف، ويعلو الحننة شريط يتألّف من سلسلة من المحاريب المزخرفة، ثم طاسة كانت مكسوة بالفسيفساء الزجاجية، وقوس الطاسة يتألّف من الرخام

٤٥ - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ١٥١.

الملون المؤلف من أقواس متشابكة، إضافة إلى حليات زخرفية تملأ كل زاوية فيه، ويحيط به من الجانبين سوبريتان بتاجيهما وقادعديهما الرائعين من الرخام الملون، يعلوهما عقد تألفت وجهته من عقدين مفصصين متداخلين، وبليونين مختلفين أبيض وأسود، ضمن إطار من الخيوط المتداخلة ملئت زواياه بالفسيفساء الدقيقة الصنع المطعممة بالصدف على شاكلة فسيفساء المحراب، وتحيط بالمحراب من الأعلى شريط من الآيات<sup>٤٦</sup>.

ومن المعلوم أن التربة تحمل الزاوية الشمالية الشرقية من البناء، وتضم قبرين كانا من الطين والقش، خلاف ما جرت عليه عادة القبور القديمة، كما أن وصفها البسيط هذا لا يتفق مع ما حفلت به المدرسة من الزخرفة، ويرجح أن يكون القبران محدين، وأنه لم يكن هناك ضريح في الأصل؛ بسبب مقتل الأمير، وعدم وجود من يعني بضربيه<sup>٤٧</sup>، وللتربة باب يؤدي إلى الصحن، وشباك في كل من الجدران الثلاثة، أحدها مفتوح على قاعة الصلاة، وهي مسقفة بقبة عالية محمولة على (٤) أقواس تقطي زواياها المقرنصات، وجدران التربة مكسوة في أجزائها السفلية بالرخام والأواح المزخرفة وأشرطة من الكتابة الجميلة، كما هي الحال في قاعة المدرسة، مع اختلاف في بعض الأشكال<sup>٤٨</sup>. الشكل (١٣٦، ١٣٧، ١٣٨).

### ٣. حمام التبروزي وجامعه:

شُيدَت في دمشق في عصر المماليك عدة مساجد منها جامعان كبيران: أولهما جامع (يلبغا) الذي شيده (الأمير سيف الدين يلبغا) نائب السلطنة عام ١٣٤٨هـ/١٤٤٧م. والثاني جامع (تنكر) الذي شيده (الأمير تنكر) عام ١٣١٤هـ/١٤١٣م. وكلاهما على شاكلة جامع دمشق الأموي من حيث الصحن المحاط بالأروقة، وتحيطه الحرم، لكنهما ينتميان بعناصرهما المعمارية والزخرفية إلى العصر المملوكي.

ولكن شيدت جوامع لم يكن لها الشهرة نفسها ومنها جامع التبروزي الذي يُعد من المساجد الصغرى التي شُيدَت لسد حاجة الأحياء المحدثة، كهذا الحي المسمى باسم المسجد أيضاً (حي التبروزي)، شيده الأمير عز الدين خليل التبروزي حاجب الحاجب في دمشق عام ١٤١٩هـ/١٤٢٢م، مع حمام إلى جواره، ويُؤلف مع المسجد مجموعة معمارية لها واجهة مشتركة على الشارع، ويُعد الحمام من أهم حمامات دمشق القيمة بتحظطيه وعناصره الفنية.

٤٦- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص ٢٠٧.

٤٧- Gonnella, Julia y Meinecke-Berg, Viktoria, Siria, Palestina y Egipto (ayubies, mamelucos y cruzados) en El islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, 2001, pp195,200.

٤٨- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص ٢٠٨.

أما المسجد قله صحنٌ مسقوف يتصل بقاعة الصلاة وبالترية التي تضم ضريح الأمير المذكور، وهناك متذنة مربعة الشكل مستقلة عن المبنى، ويشتهر الجامع بألواح القاشاني التي تأثر قاعة الصلاة، وهي ألواح سدايسية الشكل تُعدّ أقدم ما عُرف من هذا النوع من الخزف الذي سيشيع استعماله<sup>٦٤٩</sup>. (الشكل ١٣٩)

#### ٤. البيمارستان الأرغوني:

من أهم البيمارستانات التي خلفتها الحضارة العربية الإسلامية، أقيم في عهد نائب السلطنة المملوكية (أرغون الكامي) عام ١٣٥٤هـ / ١٣٥٤م، وذلك من حيث تخطيطه ونظامه الدقيق، وما فيه من عناصر معمارية أصلية.

يتألف المبنى من مجموعة من الأجنحة تتصل بالجناح المركزي من ناحية، كما تتصل بباب خاص إضافي من ناحية أخرى، عن طريق دهليز، أو ممرات مسقوفة.

أما القسم المركزي فيكون من صحنٍ كبير توسيطه بركة، ويعحيط به من الجانبين الشرقي والغربي رواقان متماثلان على (٥) قفاطر مزودة بأوتار خشبية مثبتة فوق تيجان الأعمدة، ويتصل بالصحن من الشمال والجنوب قاعتان كبيرتان، بينما تتوزع الغرف الصغيرة وراء الرواقين، ومن المرجح أن تكون غرفاً للأطباء، بينما خصصت القاعات الكبرى لاستقبال المرضى ومعالجتهم، أو لإلقاء الدروس على طلبة الطب، كما هي الحال في معظم البيمارستانات، وكذا خصصت الأجنحة الثلاثة المقاممة في الجهة الشرقية والمتعلقة بالجناح الرئيس عن طريق ممرٍ في الرواق الشرقي، وبدهليز يصل فيما بينها لإقامة المرضى، وبينهم مرضى الأمراض العقلية كما تؤكد الروايات التاريخية، وكل من هذه الأجنحة فناء صغير مسقوف بقبة تتوازى حوله الخلاوي، أو حجرات المرضى، ويلاحظ من حيث التصميم أن القاعة الكبرى الجنوبيّة تقوم مقام إيوان كبير مفتوح على الصحن بقطرين بدلاً من قنطرة واحدة، ومسقوف بقبة بدلاً من القبة، ويتصل به في الداخل جناحان على هيئة الإيوان؛ لزيادة سعة القاعة، وكذا هي الحال بالنسبة إلى القاعة الشمالية المقابلة، وهناك قاعتان أخريان موجودتان على جانبي الدهليز الممتد من البوابة الرئيسية المفتوحة في الواجهة الغربية، وهي بوابة فخمة من الحجر الجيد النحت، تزيّنها النقوش والكتابات، عقد إيوانها بالمقرنصات.<sup>٦٥٠</sup> (الشكل ١٤٠)

٦٤٩- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا ، ص ١٧٣.

البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ١٣٠.

الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٢٢٠.

٦٥٠- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا ، ص ١٨٦.

البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٣٠.

الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٣٣٧.

يقع داخل أسوار حلب القديمة، غرب القلعة، في المنطقة العقارية التابعة لحي الفرافرة سوية على، محضر (٣٠٥٨)، تجاوره من الشرق قلعة حلب، ومن الغرب سوق الدشة، ومن الجنوب سوق الزرب، ومن الشمال شارع جامع الحياة، ويتم الوصول إليه عبر سوق خاير بك، وهو من أشهر خانات حلب<sup>٥٥١</sup>. • تاريخياً.. بناه الأمير (خاير بك بن ملابي بن عبد الله الجركسي الأشرف) عام ٩١٨هـ/١٥١٤م، آخر أمراء المماليك في حلب، الذي خان سلطانه (قانصوه الغوري) عندما انحاز إلى معسكر السلطان العثماني سليم الأول) في معركة مرج دابق عام ١٥١٦م، فسمّي (خائن بك)، وكان ذكيًا وقاسيًا وبخيلًا.

وقد استُخدم الخان كغيره للتجارة، فهو واقع على محور تجاري رئيسي في حلب القديمة بسوق الزرب، وكان التجار يدخلون بدوابهم المحملة بالبضائع إلى باحة الخان، ويبذلون بتفرغ بضائعهم في المحلات في الطابق الأرضي، ثم تذهب تلك الدواب إلى الإسطبل، ويقصد التجار إلى الطابق الأول للراحة حيث غرف النوم معدة لهم<sup>٥٥٢</sup>.

• معماريًّا.. يتَألفُ الخان من باحتين:

- رئيسة ذات طابقين تحوي الطوبية منها أقواساً مفتوحة.

- وداخلية صغيرة مؤلفة من طبقة واحدة. (الشكل ٢٥٦)

- يقع المدخل في الجهة الغربية من الخان ضمن إيوان تعلوه المقرنصات، وهو ذو بوابة جميلة عليها نقوش غالية في الإبداع المملوكي الطراز، وكُتب على جزأى الباب على ارتفاع (٢٠٥) سطر نسخي مملوكي، نصه: "ما عمل برسم المقر الأشرف الكرييم العالى خائز بك الأشرف كاشف الملة الخلية المحروسة، أعز الله أنصاره، في ربيع الأول سنة عشرين وتسعمئة"<sup>٥٥٣</sup>.

أما واجهة المدخل الخارجية فقوس مدبب منفذ بمداميك متباينة اللونين الأصفر والأسود، مشقة على جانبي البوابة، مع بعض التواذف الصغيرة المرتفعة حتى مستوى الطابق العلوي، وأما الباب فضخم محاط بقوس مدبب أصغر من القوس المدبب في البوابة، ويُستعمل فارق القطرين لتزيين المدخل، وتتد حجارة قوس المدخل إلى داخل الخان مشكلة قبة متقاطعة، وتتوسطه زخرفة دائرية، وفي الطرف الأيمن منها درج يُصد إلى الطابق العلوي، أما درفتا الباب فتأخذان شكل القوس المدبب، وهو من الخشب المصفح بالحديد بواسطة مسامير حديدية كبيرة على شكل مسدسات، وإحدى درفتى الباب تحتوي على (خوخة)؛ لدخول الأفراد ليلاً إلى الخان<sup>٥٥٤</sup>.

٥٥١- طلس، (أسد)، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، مديرية الآثار العامة، سوريا، ١٩٥٦، ص ١٢٣.

٥٥٢- دهنه، (عبد الحميد)، الخانات المملوكية في حلب، جامعة حلب، ٢٠٠٢، ص ٣٧.

٥٥٣- حجار، (عبد الله)، المعالم الأثرية في حلب، منشورات جامعة حلب وجمعية العاديات، حلب، ١٩٩٠، ص ٨٨.

٥٥٤- دهنه، الخانات المملوكية في حلب، ص ٣٧.

- الفناء الداخلي بلي المدخل، وهو فناء واسع، مستطيل الشكل تقريباً، تصل مساحته إلى (٤٠٠م²)، تحيط به أروقة بأقواسها المدببة التي تستند إلى دعامات مستطيلة، وخلف الأروقة غرف صغيرة سقوفها مهدية كانت تستخدم لخزن بضائع التجار، تتوسطه بركة ماء، والنباتات والأشجار لتلطيف الحرارة، وإعطاء منظر جميل (الشكل ٢٦٠)، أما كبر مساحة الفناء فتساعد على تأمين النور والهواء للحجرات المحيطة به، وتظهر على الجدار الغربي لبلاطة الخان، وعلى ارتفاع (٣م) كتابة في (٣) سطور بخط نسخي مملوكي متأخر، نصها: "بسم الله الرحمن الرحيم، إِنَّمَا يَعْمَلُ مَسَاجِدُ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ"، أمر بعمارة هذا المكان المنتقل إلى رحمة الله خاير بك بن عبد الله، والمنزل بوجهه الأمير غليل الزيني التبربي، في أيام مولانا السلطان سليمان، عز نصره، وكان الفراغ بتاريخ سنة ثمان وعشرين وتسعة مئة للهجرة<sup>٥٥٠</sup>.

- يحيط الرواق بالفناء في كل الطابقين الأرضي والأول، وقد عانى الرواق في الطابق الأرضي من جشع أصحاب محلات، وتم ضمه إلى محلاتهم، أما في الطابق الأول فما زال محافظاً على وضعه كما كان.

- الإسطبل يتم الوصول إليه بالانتقال من الفناء عبر رواق مسقوف يتمحور مع المدخل إلى فسحة داخلية صغيرة يتوزع حولها عدد من الحجرات على طابق واحد فقط، كانت فيما مضى تُستعمل إسطيلاً.

- كان المسجد سابقاً في الفناء، سقفه قبو متقطع، مستند إلى (٤) ركائز حجرية ضخمة في أربع زواياه، وحالياً أصبح محلات تجارية، والمسجد أصبح فوق تلك المحلات، ويتم الوصول إليه عبر الواجهة الخارجية للمسجد<sup>٥٥١</sup>.

ويتكون الطابق الأول من حجرات موزعة حول الفسحة، يتقدمها رواق، وقد كانت تُستخدم للنوم، والأروقة تراسات مشتركة، وما زال الطابق محافظاً قدر الإمكان على وضعه الأصلي؛ إذ إنه لم يتعرض لتشويهات أو تعديلات كما الطابق الأرضي.

- تبرز الاكتشاف في الجزء فوق المدخل من الجهة الداخلية والخارجية، وهي صالة ذات سقف خشبي وأعمدة دائرية، وإنارتها تتم عن طريق نوافذ علوية.

ثم إن قرب الخان حالياً من الشارع المحدث ساعد على تسلیط الضوء عليه، وازدياد حركة التجار والزيارات أكثر أدى إلى حدوث تغييرات فيه بما يتاسب مع متطلباتهم<sup>٥٥٧</sup>، وبسبب عدم صيانة الأسقف الخشبية في أروقة الخان، وتأثيرها بعوامل الجو، سقطت أجزاء كبيرة من السقف، ولاسيما في الطابق الأول، ومن أجل الحماية من أشعة الشمس صيفاً، والأمطار شتاء، تم رفع سقف بديل لم يكن كالسابق، بل كان سقاً بيكونياً نفذ تنفيذاً سيناً لم يتلاءم مع الطبيعة المعمارية للخان، ومن ثم لا بد من دراسة الوضع الحالي، وإجراء

٥٥٠ - المرجع السابق نفسه، ص ٣٨.

٥٥٦ - بهذه، الخاتات المملوكية في حلب، ص ٣٩.

٥٥٧ - المرجع السابق نفسه، ص ٤٠.

الترميمات اللاحقة للخان من قبل مديرية الآثار والمتاحف؛ بهدف حماية الخان، والحفاظ عليه موقعاً أثرياً ونارخياً مهماً يعطي حقية زمانية خاصة بحلب<sup>٥٥٨</sup>. الشكل (١٤١)

#### ٦. قصر الزهراوي:

من أشهر بيروت حمص الأثرية، وأقدمها، المملوكي، يرجع إلى سنة ٦٦١هـ / ١٢٧٠م، وقد أرخ استناداً إلى كتابة تأسيسية منقوشة منزلة في الواجهة الشمالية المطلة على باحة الدار، وقد بناء (أبو الفضل الأزهري)، وقد كتب على حجرة أبعادها (١٣١٥x٩,٥) مـ ما نصته: "بسم الله الرحمن الرحيم، عمر هذه الدار وملكتها علي بن أبي الفضل الأزهري، ووقفها لمن بعده، ولاؤلاده".

ونقضى إلى الدار المذكورة بوابة تعلوها قنطرة ذات أقواس من الأنمودج ثلاثي الفصوص، وتعلوها كتابة نصتها: "عمر هذه الطريدة الحق الأبر على الأزهري، في سار". و(تسار = ٦٦١)، وقد ألغيت هذه البوابة، واستعيض عنها بالدخول من القسم الغربي الذي انهار، وأعيد بناؤه، وجعل مدخله يفضي إلى الدار<sup>٥٥٩</sup>.

وقد سُئِّلَ نسبة إلى الأسرة التي أقامت واستقرت فيه، وذلك يخلق نقاشاً في وجوب تسميه (قصر الأزهري) لا (قصر الزهراوي)، وقد تم استخدامه داراً للحكم في حمص بعد القلاع، وذلك في نهاية عهد الأسرة الأسدية، كما أن هذا القصر بقي مستعملاً حتى بعد دخول العثمانيين إلى الديار الشامية. وهو يحمل طابعاً فريداً من نوعه في سوريا من حيث خصوصية البناء<sup>٥٦٠</sup>؛ لذا سُجِّلَ أثرياً عام ١٩٦٧/١٩٧٨، واستملكته مديرية الآثار والمتاحف سنة ١٩٧٨/١٩٧٧، بغية المحافظة عليه، وترميمه، وتوظيفه متاحفاً للتقاليد الشعبية، وهو قيد الترميم حالياً.

تتألف الدار الحالية من قسمين: القسم المملوكي القديم، والقسم العثماني الحديث. يتتألف القسم المملوكي من ممرٍ يؤدي إلى صحن تحيط به الأجنحة من الجهات كلها، والمبني من طابقين يتتألف القسم الجنوبي منه من إيوان تعلوه قبة صدفية الشكل تحاط في أسفلها بمقرنصات، ويحفره من الجانبين غرفتان.

والتسقيف في الأجزاء العامة من القصر تم بوساطة القباء، وهي سقوف الغمس (بالعامية) المعقودة بالحجارة العشيمة المكسوة بالكلسة، وهي قباء طويلة لها مقطع الأقواس المدببة. والإيوان في حمص غرفة لها (٤) دراج، والجدار الرابع مفتوح على الباحة مباشرة يتجه حسب هربوب الريح الرطبة، أي للشمال، فهو للجلوس في أيام الصيف، وغالباً ما يحوي جناحاً للاستقبال وغرفتين بجانبه.

٥٥٨- المرجع السابق نفسه، ص ٤١.

٥٥٩- طقطق، (جاكلين)، والمصري، (عاد)، البيت العربي في مدينة حمص القديمة، رسالة ماجستير في كلية الهندسة المعمارية بجامعة دمشق، غير مطبوعة، دمشق، ١٩٩٣/١٩٩٢، ص ١١.

٥٦٠- جبور، (فريد)، قصر الزهراوي في حمص، اكتشاف سوريا، الأولى للنشر، حمص، ٢٠١٠.

و داخل الجنان قاعتان، تعلو الأولى قبة، و تحف بكل منها غرفتان مسقوفات بعقود، أما القبة الوسطى فتتميز بوجود عنق مليء بالنواذن الصغيرة، وزوايا الانتقال مزينة بالمقرنصات. والجنان الشمالي (الملكي) عن قاعة رئيسة، تعلوها قبة تحف بها من الجانبين قاعتان أصغر، سقفاهما من العقود، و تعلوهما قاعتان متاظرتان تطلان على القاعة الوسطى، و يعلو سقفهما قباب، ويست الوصول إليهما عن طريق درجين في الجهتين الشرقية والغربية مروراً بشرفتين تطلان على باحة الدار، ويشمل الطابق الثاني كامل المبني، عدا الجنان الجنوبي.

ولا بد من ذكر أن هذه الواجهة تحوي رنك (الظاهر بيبرس)، وكتابة تأسيسية يقال إنها تعود إلى العصر الأموي، وهي مجلوبة، والرنك يمثل اثنين من حيوان الببر<sup>٥٦١</sup> متقابلين، وبينهما ما يشبه الزهرة، لكنها هنا مرمتа بحجارة بيضاء، ولكنها غير منسجمة مع روح المبني، مما يدل على احتتمال كونها ترجع إلى مبان أقدم منه، ولم تُحدَّد ماهيتها.

أما الواجهتان الغربية والشرقية فتحتويان عدداً من الغرف، كما تحوي الواجهة الشرقية كتابة فوق ساكن الباب، نصها: "أشهد أن لا إله إلا الله"، ولا بد من ذكر أن هذا التصرّف غيره من العوامل المملوكية في حمص تميز بالعمارة البلقاء، أي تناوب الحجارة البيضاء الكلاسية والسوداء في بعض الأحيان، وفي سواكن الأبواب والنواذن.

إضافة إلى كون قصر الزهراوي يقوم على أنقاض مبان أقدم منه، يدل على ذلك قبوران من العصر البيزنطي اكتشفت تحتهما مدفن بيزنطي في الجنان الجنوبي، ووجود أقبية في الجهة الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية بناؤها بيزنطي، وكذلك جرن المعمودية الذي نقل لحقبة من الزمن إلى كنيسة أم الزنار، ثم أعيد لاحقاً إلى القصر<sup>٥٦٢</sup>.

وقد بلّطت أرض القصر بالحصى البازلت الأسود، وفي سنة ١٩٩٠ / اكتشفت دائرة آثار حمص صهريجاً مائياً أبعاده (٤٤ × ٤٤ م) لحفظ الماء، إضافة إلى بئر ماء.

وقد قامت دائرة الآثار ببناء البركة الحالية المثمّنة الشكل من الحجر البازلت. وتنطبق على قصر الزهراوي معظم سمات العمارة المملوكية، غير أنه فقير بالعناصر الزخرفية، وتنطّيطه العام يُوحى بكونه مقرأً للحاكم، أي إنه يحمل وظيفة سياسية اجتماعية، وهذا ما يدل عليه الطابق العلوي في هذا القسم؛ إذ نلاحظ أنه ملئ بالفراغات الصغيرة نسبياً، والتي يصعب استخدامها في الاستعمال اليومي، وكذا تداخل قاعاته وارتفاعها الضخم.

<sup>٥٦١</sup>- الببر حيوان بري شكله بين الفهد والقط. الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص ١٨٧.

<sup>٥٦٢</sup>- أسد، (عيسي)، وخوري، (منير)، تاريخ حمص منذ ظهور الإسلام حتى يومنا هذا ١٩٧٧-٦٢٢ / ١٩٨٤، ج ٢، ص ٢٣. الأرثوذوكسية.

والتيجان على الأعمدة في شرفات الواجهات مخلوبة من عصور أخرى سابقة، وتبين أن أحدها تعرّض للترميم<sup>٥٦٣</sup>.

ولابد في الختام من التذكير أن القسم المتبقى من القصر لا يحتوي على جناح الخدمات من مطابخ وأسطبلات ومعيشة الخدم، فقط غرفة المؤونة، مما يرجح كونها مهدمة، علماً أن جزءاً من البناء من الناحية الشرقية مهدوم، وبني جامع مكانه؛ إذ أُلحق بالقصر خلال الحقبة العثمانية بناء يمثل مضافة وجاماً بناهما الشين (موسى بن زهرة)<sup>٥٦٤</sup>. الشكل (١٤٢، ١٤٣).

٥٦٣ - طفلي والمصري، البيت العربي في مدينة حمص القديمة، ص ١١.

٥٦٤ - المرجع السابق نفسه، ص ١٢.

الفصل العاشر  
العمارة الإسلامية في العصر العثماني

أولاً.. تمهيد تاريخي:

انبعثت الدولة العثمانية من إمارة صغيرة غرب الأنضول (آسيا الصغرى) كانت إلى جانب الإمارات السلاجوقية الأخرى، وعلى رأسها سلطنة سلاجقة الروم في قونيا، وقد رأينا كيف فُسح المجال أمام القبائل التركية المسلمة؛ للاستقرار في الأنضول في أعقاب النصر الذي حققه السلاجقة على البيزنطيين في معركة (ملاد كرد) المشهورة عام ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م، وكان ضعفُ السلاجقة في القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي وكذا ضعفُ البيزنطيين، قد شجعاً الأئمَّة العثمانيين للتروُّس على حساب هاتين الدولتين، فاحتلَّ عثمان الأول بن أرطغرل بن سليمان شاه / ١٢٨١ - ١٣٢٤ م // — وإليه يُنسب العثمانيون — مدينة بورصا عام ١٢٩٩ م /، واتخذها عاصمةً للدولة الفتية، ثم احتلَّ إينيق عام ١٣٣١ م /، وجاء بعده (مراد الأول)، فاحتلَّ عام ١٣٦١ م / قطعةً من أوروبا عُرِفت باسم (تراتيَا)، ومن أهم مدنها: سالونيك، وصوفيا، وبلووديف، وأدرنة التي نقلَ إليها العاصمة، إلى أن تمكنَ السلطان (محمد الفاتح) من فتح القدسية التي خدت العاصمة الثابتة للدولة العثمانية عام ١٤٥٣ م /، وعام ١٤٦٠ م / تم الاستيلاء على طرابزون، وعلى ما تبقى في يد الدولة البيزنطية، وقضى عليها نهائياً، وتبع ذلك الاستيلاء على شبه جزيرة القرم.

اتجهت الدولة العثمانية — بعد أن ضمت سائر الأنضول إليها — نحو العالم العربي، فافتتحت على دولة المماليك في الشام ومصر والجaz، في عهد السلطان (سليم الأول) عام ١٥١٦ و ١٥١٧ م /، وتتابعت فتوحاتها وفتحت البلاد العربية في شمال أفريقيا باستثناء المغرب الأقصى، فاستحالَت الجمازير ولاية عثمانية عام ١٥١٨ م /، وتبعتها تونس عام ١٥٧٤ م /، ثم انتصرت على الدولة الصفوية في العراق عام ١٥٣٤ م / ٦٨٣.

أما في أوروبا فقد استمرَّ التوسيُّع فيها حتى غدت أوروبا الشرقية جميعها أملاكاً عثمانية ضمتْ: بلغاريا، وهنغاريا (المجر)، وبيوغلاغيا، واليونان، وجزءاً من بولونيا، وروسيا، وانتشر الإسلام في بعض مقاطعاتها، ولا سيما في: صربيا، ومقدونيا، والبوسنة، والهرسك.  
وهكذا تحولت الدولة العثمانية إلى إمبراطورية واسعة، بل أقوى دولة في العالم وقتئذ، فهي تمتد على (٣) قارات، وينضوي تحت لوائها قسمٌ مهمٌ من العالم الإسلامي.

بدأت مسيرة التغيير بالخلافة السلطانية العثمانية في احتلال فيينا عاصمة النمسا عام ١٦٨٣ م /، وتواترت هزائمها؛ بسبب يقظة الدول الأوروبيَّة، وتلبِّتها ضدَّها، وأسهم في هذا التقهقر فسادُ الإدارة وبطالة السلطان وأعوانه، وضعفُ بعض السلاطين، وعدمُ تهويدهم بالمسؤولية المنوطَة بهم حقَّ القيام، وب بدأت الدولة تتخلَّى عن أملاكها ولائياتها واحدة تلو أخرى، إلى أن كانت الضربة القاضية في أعقاب الحرب

٦٨٣ - دايب، (فيرينا)، وقوبلو، (إنجي)، العثمانيون سلطنة دامت ست مئة سنة، في اكتشاف الفن الإسلامي في حوض المتوسط، كتاب صادر عن متحف بلا حدود، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٧ /، ص ٢٢٧، ٢٢٣.

العالمية الأولى سنة ١٩١٨م، وتحولت إلى جمهورية تركية تقصر أملاكها على الأراضي وقطعة صغيرة من أوروبا تمتد بين إستنبول وأندرا.

هذا من الناحية السياسية أما من الناحية الحضارية فقد أحدثت الفتوحات دولة العثمانيين بقوى مادية ومعنوية ساعدت على ازدهار الحضارة، فيضمها البلاد العربية ورثت ما لديها من تراث روحي وثقافي، وانقل مركز الخلافة من القاهرة إلى إستنبول، وأصبح من ألقاب السلطان العثماني لقب (خادم الحرمين الشرفين)، إضافة إلى احتوائهما على العاصمة العربية الأخرى، كدمشق، القدس، والقاهرة، وبغداد، وغيرها، وأصبحت إستنبول مركز القوى في العالم الإسلامي كلّه، وموقعاً لعلمائه، ومقرّاً لتراثه العلمي والثقافي والفنى.<sup>٦٨٤</sup> . الشكل (١٨٤)

### ثانياً.. الحركة العمرانية وخصائص العمارة العثمانية:

إن امتداد أملاك الدولة العثمانية، وتوسعها في أراضي لم يدخلها الإسلام من قبل، أحدث حركة من العمران واسعة تجلت في الدرجة الأولى في بناء المساجد والمجمعات الدينية والثقافية التي تضم: المسجد، والمدرسة، والمستشفى، والتكمية، وغير ذلك، فالعمائر المشيدة على مدى (٦) قرون عاشتها الدولة العثمانية - وهي حقبة لم تبلغها أيّ دولة من دول الإسلام من قبل - أفت تراثاً ضخماً نجداً معظمه في الأراضي والولايات العربية، لأن ما كان منها في الولايات الأوروبيّة قد اندثر معظمه، وبين هذا التراث المعماري: جوامع، ومدارس، ومجمعات، وأسواق، وخانات، وتربيّة، وسبيل، وحمامات، وقصور، ومنازل. وقبل البدء في تحليل خصائص العمارة العثمانية لا بد من الإشارة إلى الأسس التي أسهمت في تكوينها وإعطائها الصفة المميزة، فهي لا شك قد انطلقت من القواعد التي رسّخها السلاجقة في الأراضي، ولا سيما من ناحية التخطيط، ثم عمد المهندسون العثمانيون إلى تطويرها وتجاوزها في محاولات جريئة للتجديد والإبتكار، وخلق نتاج متميز، متأثرين بعض الشيء بالبيئة المحلية والتقاليد الفنية الموروثة عن البيزنطيين والأرمن، وعن الأقاليم الإسلامية، كإيران، والشام، ومصر، وهكذا تأسّل وترسّخ فنّ له خصائصه ومميزاته، وانتشر في أنحاء الإمبراطورية العثمانية، وأصبح يمثل حلقة جديدة في سلسلة مراحل تطور العمارة الإسلامية، حلقة غنية بنتائجها وبراعة مهندسيها الذين اشتهر منهم المهندس سنان باشا).

وفي دراست خصائص العمارة العثمانية ستعطي المساجد مزيداً من عناية؛ لما طرأ عليها من تطور ملحوظ في الفن المعماري، وفي التصميم، وفي استخدام العناصر، ورأينا تسوياً لدراسة والبحث أن نصنفها بحسب مراحل التطور الرئيسية الآتية:

- مرحلة ما قبل فتح القسطنطينية.

- مرحلة ما بعد فتح القسطنطينية.

٦٨٤ - دايب، (فيرينا)، وغويولو، (إنجي)، العثمانيون سلطنة دامت ست مئة سنة، ص/٢٣٣، ٢٤٤/.

٦٨٥ - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٤٢٧، ٤٢٨/.

- عهد المهندس سنان باشا وتلامذته.

- مرحلة دخول تيارات العمارة الأوروبية في القرن الحادى عشر الهجرى، السابع عشر الميلادى، وما

بعد.

ومن الأفضل قبل استعراض هذه المراحل إبراج الصفات العامة التي تميزت بها العمائر العثمانية عامة والمساجد والعمائر الدينية بشكل خاص.

#### المظهر العام للعمائر:

تبعد الجوامع العثمانية من الخارج كتلة متراسمة بالغة الضخامة والارتفاع، فهي تبني غالباً مرتفعة عن سطح الأرض، أو فوق سوق أو دكاكين، ويصعد إليها بأدراج عدة، وتبعد في هذه الكتلة التبييات وأنصاف القباب ملتفة حول القبة المركزية الأَم البالغة الارتفاع، وتتدرج الارتفاعات بتناقض وانسجام في هذه الكتلة التي تتخللها الأشكال والعناصر المتوعنة كالنوافذ، والشمسيات (النوافذ الحصبة)، والقناطر، والرفاريف، والدعائم الجدارية البارزة، ونجد المآذن قد انطلقت من خلال الكتلة بقوامها المشوّق، ورشاقها البالغة، وبشرفاتها المتعددة، ورأسها الدقيق المخروطي، وهكذا يطغى التكوين المعماري وجمال التصميم على الزخرفة في المظهر الخارجي وفي الواجهات، العناصر المعمارية:

غدت القباب العنصر الأساسي في التسقيف، بينما: القبة الكبيرة المركزية، وأنصاف القباب الملحة بها، والقببيات التي تغطي الأروقة والغرف وبعض أطراف قاعة الصلاة وأجنحتها المنخفضة، وقد بُنِيتَ الجهود لزيادة قطر القبة المركزية وارتفاعها، فبلغ قطرها في السليمانية في أدرنه (٣١,٥ م)، ووصل ارتفاعها في السليمانية في إستنبول (٥٣ م)؛ إذ أراد المهندس بهذين الرقمين القياسيين تحدي قبة آيا صوفيا التي ظلت تُعدْ فريدة بين سائر قباب العالم القديم، فقطرها (٩٠,٩ م)، وارتفاعها (٩٢,٥ م).

وتكون القبة في العمارة الإسلامية العثمانية: من طasse كروية الشكل تقل قليلاً عن نصف كرة، كُسيت من خارجها بصفائح الرصاص، ومن رقبة أسطوانية تميل قليلاً نحو الشكل المخروطي أو قطاع من مخروط، زُوِّدت بعدد كبير من فتحات النوافذ تفصل بينها دعامات بارزة، وتبعد الرقبة من الداخل أقل وضوحاً وتميزاً من طasse القبة، وقد استُخدمت عقود واسعة عالية تعتمد على دعائم ضخمة لحمل هيكل القبة، هذا هو الشكل العام الكلاسيكي للقباب الكبرى بعد فتح القسطنطينية، أما قبل ذلك فكانت على شاكلة القباب الإسلامية التقليدية، رقبتها مثمنة الأضلاع قليلة الارتفاع، يتخللها عدد قليل من النوافذ.

كذا ظلت القباب الصغيرة، أو الثانوية، على الصفة السابقة برقبة قليلة الارتفاع، أو من دون رقبة، وطاستها غالباً نصف كروية.

أما أنصاف القباب التي جعلت رديفاً للقباب المركزية، واستُخدمت لتسقيف القطاعات المستطيلة (نصف مربع) المتفرعة من حيز القبة المرربع، فهي على شاكلة القباب المركزية، فيها ما يعادل نصف رقبة ونصف الحد من النوافذ، وينتشر عنها أنصاف قباب صغيرة تُكمِّل تغطية القطاع.

أما وساطة الانتقال بين المنسطرين المربع والدائرة في أركان القباب فهو المثلث الكروي الذي ترتبه أحياناً المقرنصات، ولا بد من أن نشير هنا إلى وساطة انتقال من نوع خاص شاع استعمالها في بداية العهد العثماني في عمارت بورصة وأدرنه، وهي مجموعة من الأشكال المنشورة، تماماً الأرkan، وتحيط بالجدار؛ لتحمل طاسة القبة ذات المسقط المستدير، وهذا الشكل متتطور كما نعتقد عن المثلثات التي استعملت في عمارت سلاجقة الروم، كما هو الحال في قبة (قرطاجي مدرسة) في قونيا، وهذه الشكلان السلجوقي والعثماني لا نجدهما في غير الأناضول والمدن التركية.

ونجد القباب الكبيرة المركزية محمولة على قناطر واسعة مليء جزؤها العلوى (فتحة العقد) بصفوف من النواخذة، في حين يحتل القسم السفليًّا مجموعةً من القنطر الصغيرة، هذا إذا لم يتبين عن القنطرة الكبرى نصف قبة.

ولا شك في أن هذا التكوين المعماري للقبة ونصف القبة والقببة والرقبة وتوزيع النواخذة وتصميم القنطر الكبيرة، فيه كثير من الاقتباس من آيا صوفيا الكنيسة البيزنطية التي تحولت إلى مسجد منذ الفتح. والشكل العام للعقود، ولا سيما العقود الكبيرة الرئيسة، كان من النوع المدبب الذي يرسم من مراكز، واستُخدم في أماكن أخرى، كقنطرة الأروقة مثلاً، عقد من النوع الذي أسميه (الفارسي) الذي يرسم من (٤) مراكز، وقوساه العلويان مقعران نحو الخارج، وإلى جانب هذين النوعين هناك: العقد نصف الدائري، والعقد المجزوء، ونقصد به ذلك الذي تكون فتحته أقل من نصف الدائرة، وتتجه مستعملاً غالباً في الأبواب، وهناك العقد العائق الذي يعلو سواكف الشبابيك، وهو من النوع الفارسي غالباً.<sup>٦٨٦</sup>

ولفت الانتباه هنا إلى نوع من العقود ظهرَ في عمارت بورصه، ولم يُعرف في أماكن أخرى، ويكون من قطاع مستقيم في الأعلى، وقوسين على الجانبين، كالذي نجده في عقد إيوان القبة في (يشيل جامع أو الجامع الأخضر) في بورصه، وفي قناطر الرواق الذي يتقدم قاعة الصلاة في جامع (يلدريم بيازيد).

واستُخدمت العضائد الضخمة؛ لحمل القباب الكبيرة المركزية، وهي على أشكال: مربعة، أو مضلعة، أو أسطوانية مخددة (ذات قنوات شاقولية)، أو صلبية المسقط، ويلاحظ أنها لا تنتهي عند ارتكاز العقود عليها، بل تستمر لتبرع حول رقبة القبة، وتبدو كالأبراج معتمة بالقبيبات المحرزة، كما في: السليمية في أدرنا، و(صوكولو جامع)، وغيرهما.

أما الأعمدة فمنحوتة من الرخام أو الحجر، واستُخدمت لحمل قناطر الأروقة والقنطرة الثانوية في قاعة الصلاة، وكانت التيجان السائدة من النوع المقرنص الذي وجَد أول استخدام له في عمارت الأيوبيين في حلب، وكذلك ظهر نوع جديد من التيجان مكون من مجموعةً مشورات أو معينات؛ لذا أطلق عليه بالتركية (بقلاوة).

<sup>٦٨٦</sup> - الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٤٢٨، ٤٣٢.

وغير شكل المئذنة مما كانت عليه العصور الإسلامية السابقة؛ إذ كان يغلب عليها الشكل المربع والمضلعل، ولا شك في أن الأصل السلاجوفي ظاهر في الشكل الأسطواني العام في المآذن العثمانية، لكن التطور الذي حدث جعل المئذنة أكثر ارتفاعاً ورشاقة، وجسمها إما أسطواني مزود بالألهيد الشاقولية، وإما كثير الوجه، كذلك غدت المئذنة متعددة الشرفات، وتنتهي في أعلىها برأس مخروطي دقيق مصفح بالرصاص، وتدعى معماريّاً (المآذن القلميّة)، وهي ما تُميّز العصر العثماني.<sup>٦٨٧</sup>

وتبدو البوابات المؤدية إلى المسجد، أو إلى قاعة الصلاة، اعتيادية متناسبة مع ارتفاع الواجهات، وأقل ارتفاعاً من الواجهات، بخلاف ما شاع في العصر المملوكي؛ لإعطاء البوابات اهتماماً أكبر، لدرجة تجاوز ارتفاع بعضها ارتفاع الواجهات نفسها، وخلافاً لبوابات العمائر – في إيران والشرق الإسلامي في عهد دول المغول – المفتوحة على إيوان واسع بالغ الارتفاع والعرض والعمق، ويلاحظ أن العناية في الزخرفة موجهة خصوصاً إلى بوابات الحرم التي تزدان بالمحاريب الجانبيّة المزخرفة بالنقش والمقرنصات والسوبريات الملتصقة في مقدمة البوابة، وعلى جانبي المحاريب، وبالأشرطة الكتابية المذهبية، وينكّرنا هذا الوصف بالبوابات السلاجوقية.<sup>٦٨٨</sup>

أما النوافذ في الطابق السفلي فمستطيلة مستورّة بحاجز من قضبان النحاس، يعلوها عقد عائق مصمّت من النوع المدبب الفارسي، وهناك النوافذ في أعلى الجدران، وفي رقبة القبة، وفي نصف القبة، التي تملأ فتحات العقود، فمعظمها متشابه، يعلوها قوس دائري أو مدبب، مستورّة أحياناً بالنقش الجصيّة المعشّقة بالزجاج الملون (الشمسيّات)، ومن النوافذ ما هو مستدير حسب مقتضيات المكان.

#### العناصر الزخرفية:

سيق أن ذكرنا أن التكوين البنائي جعل العناصر المعمارية في العوامل العثمانية تطغى في الواجهات الخارجية على العناصر الزخرفية؛ لتشكل مصدر الجمال، أما في الداخل فنجد الترخيم، أو ألواح الخزف (القاشاني أو الكاشي)، في وزرة الجدران، فقد ارتفعت صناعة الخزف، وأصبحت قطعة الواحدة مربعة (٢٠×٢٠ سم)، وأحياناً مسدسة الشكل، عليها رسوم للأزهار والنباتات الملونة، وتكسوها طبقة من الزجاج، والقاشاني هذا ينبع إلى مدينة قاشان في إيران، وكانت أشهر مصانعه في كوتاهيه وإذنيق، ونجد أحياناً في كسوة المحاريب والنوافذ وفي أماكن أخرى محدودة.

وأستخدمت النقش الجصيّة استخداماً محدوداً في طاسة القبة، وفي زوايا الانتقال في القباب، وهي ذات أشكال هندسية أو نباتية، أو كتابات على أقراص أو أشرطة في أعلى الجدران الداخلية. ونجد المقرنصات تزيّن الأبواب الرئيسية، وفي المحاريب، وتُعطي زوايا الانتقال في بعض القباب.

<sup>٦٨٧</sup> - الريحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ٢، ص /٥٦٧.

<sup>٦٨٨</sup> - Gladib, Almut; El Imperio Otomano en El Islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp/534, 539.

وأخيراً هناك العنصر التقليدي المقتبس من الشام ومصر، وهو تناوب الألوان في فقرات معظم العقود<sup>٦٨٩</sup>.

### ثالثاً.. العمارة الدينية:

إن مظاهر التطور في تخطيط المساجد ولاسيما قاعة الصلاة قد مررت بخمس مراحل:

#### مسجد المرحلة الأولى:

وتتمثل من قيام الدولة العثمانية في مطلع القرن الثالث عشر وحتى فتح القدسية في عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ مـ . وستشاهد في هذه المرحلة عدداً من نماذج التخطيط في مساجد بورصة العاصمة الأولى وفي إيقاع وإثنيه. فإذا لم تفحص هذه العوامل العثمانية الأولى، وحدّ متاثرة إلى حد كبير بتخطيط المدارس التي أنشأها سلاطحة الروم في الأناضول التي تقوم على أساس الصحن المسوقة بـالأواني والغرف التي تحتل الأركان ومتاثرة كذلك بالمساجد الصغيرة التي شيدتها السلاطحة (سرجي مسجد وطاش مسجد) في قرنية التي تقوم على أساس القاعة المربعة المسوقة بقبة واحدة يتقى دمها رواق بدلاً من الصحن. ونحوها عنها:

يشيل جامع في بورصة

ويشتت تعنى الأخضر. لا يختلف هذا المسجد في تصميمه عن مسجد يلبريم. شيده السلطان جلبي محمد بن بايزيد بين عامي ٨٢٢-٨١٥ هـ / ١٤١٢-١٤١٩ مـ . يتميز بعناصره المعمارية وبطريقة التسقيف بالقباب والأقباء بواساطة الانتقال الخامسة التي تفرد بها مبانى هذه المرحلة<sup>٦٩٠</sup> وكذلك معقدود الأواني الفريدة من نوعها المستقيمة في أعلىها. وقد جعلت مقصورة السلطان في هذه المساجد في الجنان الشمالي يصعد إليها من درج في المدخل الرئيس وهي تطل على الصحن المسوقة وبايوان الصلاة. وإلى جوار المسجد أقيمت تربة السلطان وهي بناء رائع في زخرفته وهندسته<sup>٦٩١</sup> (الشكل ١٨٥).

#### مسجد المرحلة الثانية:

بعد فتح القدسية عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ مـ حول العثمانيون كيسة القدسية أي صوفيا التي ترجع إلى عهد الإمبراطور جستينيان من القرن الخامس للميلاد إلى مسجد بعد تعديلات طفيفة. وكان مخططها يتكون من بلاطة وسطى واسعة وعلى جانبيها بلاطتان وفي البلاطة الوسطى قسم مركزي مربع مسوقوف بقبة كبيرة يتصدى لها من الشمال والجنوب جناحان مسقوفان بنصفي قبة أقل ارتفاعاً من القبة الكبرى. وعلى جانبي المربع المركزي صفين من القنطر على طبقتين يفصلان البلاطة الوسطى عن البلطتين الجانبيتين. ويتمثل التأثير المهم الذي تركته أي صوفيا على المساجد العثمانية التي شيدت بعد

٦٨٩ - الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص ٢١٣، ٢٢٤.

Gladib, Almut, El Imperio Otomano en El Islam Arte y Arquitectura Editor por Hattstein, Markus y Delius, Peter, Edicion espanola, Barcelona, /2001/, pp/540, 550/.

٦٩٠ - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ٢، ص ٥٩١.

٦٩١ - الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٤٣٥.

سادساً.. العمارة العثمانية في سوريا:

## ١. العمارة العثمانية في دمشق:

كان أول عمل معماري فيها هو ما قام به السلطان (سليم الأول) في محله الصالحية في أعقاب فتح دمشق؛ إذ أمر عام ١٥١٨هـ/٩٢٤م بإنشاء تربة على قبر الشيخ (محبى الدين بن عربي) المتوفى عام ١٢٤٠هـ/١٣٨١م، ومسجد إلى جانبها، وتکية على الطرف الآخر من الطريق، مخصصة لطبع الطعام وتوزيعه على القراء، وهي بسيطة البناء، شيد الجامع وفق التقاليد المعمارية المحلية، سوى أن مئذنته أقيمت فوق بوابة المسجد، وما تزال عمارة (سليم الأول) هذه التربة والمسجد والتکية باقية إلى اليوم مع شيء من تغير.

### أ. التکية السليمانية:

من أهم عمارت العهد العثماني، تحمل موقعاً مرموقاً في دمشق، فقد شيدت على ضفاف نهر بردى غرب المدينة القديمة، وما تزال إلى اليوم في حال جيدة، وهي في الحقيقة مجمع كبير على شاكلة المجمعات (الكليات) السلطانية، أمر ببنائها السلطان (سليمان) عام ١٥٦٢هـ/٩٦٢م، واقتصر بناؤها عام ١٥٦٦هـ/٩٧٤م، على أنقاض القصر الأيلق قصر (الظاهر بيبرس)، فحلت محله<sup>٧٢٢</sup>، وتتألف من كتلتين معماريتين متشابهتين في التخطيط، هما: التکية في الجانب الغربي، والمدرسة في الجانب الشرقي، وتصل بينهما سوق تند أمام المدرسة من شمالها، مخصصة لقوافل الحاج التي كانت تنزل في الأراضي المجاورة، كما تشير النصوص التاريخية<sup>٧٢٣</sup>. (الشكل ٢١٩)

ومن حيث التصميم نجد التکية مكونة من صحن كبير تتوسطه بركة مستطيلة الشكل، وتوسّع حوله مجموعة من المباني تكاد تكون مسلسلة بعضها عن بعض، تحيط بها جمباً سوق مستطيلة أبعادها (١٢٥×١٤٤م)، يخترقها باب في الجهة الغربية، وأخر في الجهة الشرقية، يصل التکية بالسوق والمدرسة، وتالث صغير في الجهة الشمالية تنتهي قبة صغيرة محمولة على أعمدة، أما الحائط فنجدها تشعل الفراغ الحاصل بين السور والمباني، وكذلك بعضاً من أقسام الصحن الواسع<sup>٧٢٤</sup>.

ويظهر في طراز العمارة في التکية وزخارفها تأثير فن العمارة العثماني في استانبول، إضافة إلى التقاليد الفنية السورية في الزخارف<sup>٧٢٥</sup>، وذلك بأقواسها الفارسية، وعمدها ذات التجان المقرنصة، وبالقباب التي هي أداء التسقيف في كل مكان، والمداميك في الجدران، والأقواس المتباوحة في اللونين الأبيض والأسود، وفي الجهة الشمالية كتلة معمارية تتكون من مطبخ وقاعتين كبيرتين للطعام.

٧٢٢- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٢٢٩.

٧٢٣- الريحاوي، (عبد القادر)، التکية السليمانية في دمشق، مجلة الجواhirات الأثرية السورية، ١٩٥٧م، ١/٢١، ص/٢١.

٧٢٤- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٢٤٠.

٧٢٥- قاجة، (جعفر أحمد)، موسوعة العمارة الإسلامية، دار الحصاد، دمشق، ١٩٨٧م، ١/١٢٣، ص/٢٤٠.

ويحتمل المسجد الجانب القبلي، وقد جُعل بارزاً كلّياً، وهو مسقوف بقبة وحيدة، ومزود بمئذتين أقيمتا في ركني الجدار الشمالي، ويقدم قاعة الصلاة رواق مزدوج يقوم مقام المصلى الصيفي، ويتألف المسجد من قاعة مربعة الشكل طول ضلعها (١٦م)، مسقوفة بقبة عالية من نوع القباب العثمانية ذات رقبة كثيرة التواذاذ، وطاسة نصف كروية مصفحة بالرصاص، ويحمل القبة (٤) عقود ملتصقة بجدران القاعة الخينية، ويشغل زوايا الانتقال بين عقد القبة مثلاً كروية عادية من دون مقرنصات، وتنتهي في أربعة جدران القاعة تواذاذ تطل على الحدائق، ويعلوها في كل جدار نافذة، وهذه التواذاذ مع تواذاذ القبة كانت من الجص المعيش بالزجاج الملون<sup>٧٢٦</sup>، شيدت وجهات المسجد الخارجية بدماءيك حجرية يتراوّب فيها اللونان الأبيض والأسود، ولا تظهر الزخارف إلا في الواجهة الشمالية فقط، وهي كسوة من الرخام اللون والقاشاني الجميل، وفي هذه الواجهة يقع باب الحرم متقدّن البناء، المفتوح ضمن إيوان واسع معمود بالمقرنصات المزودة بالدلائل الحجرية، وعلى جانبيه محرابان عاليان بالمقرنصات أيضاً، وهناك لوحه رخامية تعلو ساكن الباب نقش عليها سطران باللغة التركية، وبالخط النسخي، تورّخ بناء التكية، وتحيط بالباب إطاراً من الزخارف الهندسية المركبة من: يطبع الرخام الأبيض والأسود والأحمر، وفي زاويتي الجدار الشمالي للمسجد تقويم مثمنتان عاليان كالأسطوانتين، لكنهما تتألقان من مطلع متعدد الوجوه، مشيدتان من الحجر الكاسي، ولهم: رأس مخروطي مدبي يُسْبِّه قلم الرصاص، وفي كل مذنة شرفة وحيدة للأذان تحملها مقرنصات هجرية، أما داخل الحرم فتندحر محراباً تعلو المقرنصات، وتحيط به زخارف من النسيفاس الرخامي، وإلى جانبه منبر من الرخام الأبيض، وتزيّن الجدران مجموعة من ألواح القاشاني موزعة فوق الشبابيك، ويقدم المسجد رواق مزدوج يرتفع عن مستوى الصحن، يعتمد على صفين من الأعمدة: يتّألف الصيف الأول من (٤) أعمدة ذات تيجان مقرنصة، يعلو كلاً منها عقد حدوبي الشكل، والرواق مسقوف بـ(٣) قباب، والصف الثاني ينقدمه في الأمام، لكن ينخفض عن الرواق الأول، ويتألف من (١٢) عموداً<sup>٧٢٧</sup>، ويطلّ على صحن التكية مباشرة، ولو سقف خشبي مائل محمول على قناطر موزعة موزعة على (٣) جهات: (٧) قناطر في الجهة الشمالية، و(٣) في كل من الجهاتين الشرقية والغربية، وعقود هذه القناطر من النوع الفارسي الذي تتناوب فيها الحجارة ذات اللونين الأبيض والأسود، أما الأعمدة ذات تيجان مقرنصة تظهر في شكل جديد مبنك يختلف عن التيجان المقرنصة المعروفة<sup>٧٢٨</sup>، ثم إن إضافة الرواق الثاني حقق توسيعاً ملماساً للمسجد، وسمح باستيعاب المزيد من المصليين خلال فترة تواجد الحجاج إلى دمشق، ولا سيما أن وجود المحاريب في صدر الرواق نفسه يشير إلى استخدام الجدار ذاته قبلة للمصلين<sup>٧٢٩</sup>، ونجد في طرفي الصحن من الشرق والغرب مجموعتين من الغرف المربعة يتقدمها

٧٢٦- الحمصي، روايَ العمارَةِ العربيَّةِ في سوريا، ص/٧٧.

٧٢٧- ولتشينجر، (كارل)، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ترجمة قاسم طوير، برلين، ١٩٢٤، ص/٢٣٠.

٧٢٨- الريحاوي، الأنثانية الأخرى في دمشق، ٧، ص/٢٩٤.

٧٢٩- ولتشينجر، المرجع السابق، ص/٢٣٠.

رواق على قنطر، وتتوزع غرف السكن على جناحين غربي وشرقي، في كل منها (٦) غرف مربعة الشكل، يتقدمها رواق يفصل بينها وبين الصحن، وكلها مسقوفة بالقباب، لكن قباب الغرف أكثر ارتفاعاً وأكبر حجماً من قباب الرواق، وقد جرى توزيع القباب في الرواق على أساس أن كل قبتين صغيرتين من قباب الرواق، تقابل قبة كبيرة من قباب الغرف الكائنة خلفها<sup>٧٣٠</sup>، وهناك في كل غرفة مدفأة من الحجر المنحوت، مزودة بمدخنة تبرز فوق القباب كالمئذنة الصغيرة، فضلاً عن وجود باب ونافذة يطلان على الصحن، ونافذتين تطلان على الحزام الضيق للحديقة التي تطوف بالمنشأة من الخلف، أما العناصر الزخرفية فتتمثل هنا بألواح الخزف المربعة (القاشاني) التي تُولَّف لوحات جميلة فوق الأبواب والشبابيك في سائر أنحاء التكية، ويطلب على قاشاني التكية اللونان الأخضر والأزرق، في حين يندر وجود اللون الأحمر<sup>٧٣١</sup>. الشكل (١٩١).

أما الجناح الشمالي فتميز فيه قاعتين كبيرتين تمتدان من الشمال إلى الجنوب، إحداهما في الغرب، والأخرى في الشرق، طول كل منها (٤٠م)، يقسمها إلى رواقين صف من العصائد الغليظة تحمل قباب السقف الأربع عشرة، ويتوسط هاتين القاعتين بناء مؤلف من (٣) غرف، يتقدمه رواق محمول على أعمدة على شاكلة الأروقة المحيطة بالصحن، ويعتقد أن الغرفة الوسطى لهذا البناء كانت تُستخدم مطبخاً، بدليل أن أربع قبابها مفتوحة في وسطها من دون سائر قباب التكية، وعليها مناور لمرور الدخان وبخار الطبخ، وهي مقسمة إلى قسمين، ومسقوفة بتنوعين من القباب:

- قبة مضلعة تُعطي مكان المواقد بغرض تجميع بخار الطبخ فيها؛ من أجل عدم انتشاره في سائر أنحاء الغرفة، وتحتوي هذه القبة على مدخنة مستطيلة الشكل.
- وقبة دائرية تُعطي القسم الخاص بتحضير الطعام.

والغرفة الوسطى أكبر غرف الرواق الشمالي، ولعل الغرفتين المجاورتين كانتا لمأوى الطعام، وكل منها مزودة بقبتين دائريتين، وكل قبة محمولة على (٤) مثلثات كروية تشتمل الفراغ الحاصل بين جدران القاعة وجسم القبة، ثم إن غرف التكية عموماً، بما فيها غرف القسم الشمالي، حالياً تماماً من أي نوع من أنواع الزخارف، باستثناء التواخذ المستطيلة أو المربعة التي زُينت بالزجاج المعشق، أما القاعتين الكبيرتين الجانبيتين فكانتا مخصصتين للمؤن، وقد بطل ذلك منذ سنوات طويلة، وشغلت التكية - باستثناء مسجدها - بمعرضات المتحف العربي<sup>٧٣٢</sup>.

أما المدرسة فتشبه في تصمييمها التكية، لكنها أصغر حجماً وفيها عدد أكبر من غرف السكن، وقاعة الدراسة هي في الوقت نفسه للصلاة، لكنها خالية من المآذن، وهي بناء مستقل يقع إلى الشرق من التكية، تبلغ أبعادها (٤٥×٤٠م)، يتوسطها صحن مزود ببركة مستطيلة الشكل، تحيط به مجموعة من

٧٣٠- ولسينجر، الآثار الإسلامية في مدينة دمشق، ص/٣٢.

٧٣١- الحمصي، رواي العماره العربية في سوريا، ص/٧٩.

٧٣٢- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٤٥.

الغرف الصغيرة المنسقوفة بالقباب، في كل منها مدفئة على شاكلة غُرف التكية، وأمام الغرف رواق يحيط بالصحن تعليه أيضاً القباب الصغيرة، محمول على عقود أقل ارتفاعاً من أعمدة رواق التكية، وفيها أيضاً مسجد خاص بها<sup>٧٣٣</sup>، غير مزود بمنارة، ولا بمنبر، فهو مصلى على شكل غرفة مربعة الشكل تبرز عن حدود البناء باتجاه الجنوب، منسقوفة بقبة لها رقبة مضلعة مزودة بالنوافذ، ولم يبق من نوافذ المسجد المنشقة بالزجاج الملون سوى واحدة فقط، وتكتسو جدرانه ألواح الفاشاني، وتنخللها شبابيك وخزانة كتب، وتتقدم المسجد مصطبان ضمن رواق مؤلف من (٣) قنطر، زُينت جدرانه بأشرطة من الزخارف الملونة وبألوان الفاشاني، وللمدرسة باب رئيس كبير مفتوح في منتصف واجهتها الشمالية، (٤) أخرى صغيرة تصل المدرسة بالحدائق المتصلة بها، ويؤدي الباب الرئيس إلى دهليز فتح على جانبيه إيوان صغيران كأنهما غرفتان للحراسة، وينتهي برواق محمول على أعمدة يشرف على الصحن، منسقوف بـ(٣) قباب، الوسطى منها رقبة خالية من النوافذ، بل حل محلها كوى مزخرفة، والباب مفتوح ضمن إيوان يقابلها بباب آخر مماثل له مفتوح في الطرف الشمالي من السوق، وكل منها واجهة غنية بالزخارف، نجدها في العقد ذي الحجارة الملونة بالتابو، وفي الأشرطة المنقوشة على شكل صفات، وفي الحلبات المستديرة المرصعة، والحجارة الملونة المفصصة<sup>٧٣٤</sup>.

أما السوق فتتألف من صفين من الدكاكين بطول (٨٥م)، في كل صف (٢٢) دكاناً تُشبه الإيوانات، منسقوفة بقباء طولية، وينتهي السوق من جهة الغربية بباب واسع يؤدي إلى التكية، ويباب آخر من جهة الشرق يؤدي إلى خارج المجمع، وهو مقنن البناء، مزخرف الواجهة، وعلى الباب كتابة تشير إلى تجديده في عهد السلطان (مصطفى الثالث) الذي تولى العرش بين عامي ١١٧١-١١٨٧هـ / ١٧٥٧-١٧٧٣م، وقد زال الجناح الشرقي من الصف الشمالي للدكاكين، واستُخدم ما يبقى من السوق القديم مع المدرسة سوقاً سياحياً للصناعات اليدوية<sup>٧٣٥</sup>.

وتظهر التأثيرات العثمانية أيضاً في شكل المئذنة، وفي شكل القباب، وفي معظم العقود التي جُعلت من النوع الفارسي، كما في قنطر الأروقة، وفي العقود التي تعلو النوافذ (العقد العائق)، وكذا في المداخل الحجرية التي تبرز بين قباب الغرف المزودة جميعها بالمدافئ، وهناك عنصر يظهر لأول مرة في عمائر دمشق، هو إيوان الباب المزود في جانبيه من الداخل بمحرابين صغيرين على طريقة بوابات العمائر السلاجوقية في الأناضول التي انتقلت إلى العهد العثماني<sup>٧٣٦</sup>.

-٧٣٣- الريحاوي، الأبنية الأثرية في دمشق، ص /٢٩٥.

-٧٣٤- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية: خصائصها وأثارها في سوريا، ص /٢٤٦.

-٧٣٥- الريحاوي، الأبنية الأثرية في دمشق، ص /٢٩٦.

-٧٣٦- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص /٢٨٢، ٢٨٣.

ومن حيث عناصر الزخرفة نجد ألواح الخزف المربعة (القاشاني) التي تأثر الجدران الداخلية، أو تؤلف لوحات زخرفية في الواجهات، إضافة إلى العناصر التقليدية، كالفيسيسae الرخامية، والتواوفذ الجصية المعشقة بالزجاج الملون (الشمسيات)، لكن مواضعها شملها التطور، وتأثرت بروح العصر، فهي أشجار وأزهار وعبارات مكتوبة، وكذا المقرنصات التي تطورت لتصبح ذات دلائل، وأخيراً استمر تلوين الواجهات بالمداميك الملونة بالتناوب على طريقة عمار العهد المملوكي<sup>٧٣٧</sup>.

#### ب. مجمع الدرويشية:

أقيم خارج أسوار المدينة قرب بابها الغربي (باب النصر)، حيث مدخل سوق الحميدية اليوم، وقد سميت المحلة بـ(الدرويشية) نسبة إلى المسجد، وهو جزء من مجمع شبهه الوالي (درويش باشا) عام ١٥٧٤هـ / ٩٨٢م، ويضم إضافة إلى المسجد: تربة، ومدرسة، وسبيل يقع على ناصية الشارع في ركن من أركان البناء.

ويكون مخطط المسجد من قاعة للصلوة مربعة مسقوفة بقبة وحيدة يتقدمها رواق يرتفع عن مستوى الصحن.

أما العناصر المعمارية والزخرفية فمزج من العناصر المحلية التقليدية والعناصر الجديدة التي أتى بها العصر العثماني<sup>٧٣٨</sup>:

- فمن العناصر الجديدة: القباب الصغيرة التي تنطوي الرواق، وألواح القاشاني الجميلة التي تكسو وزرات الجدران في الداخل والخارج.

- ومن العناصر التقليدية: المداميك الملونة بالتناوب، والترخيم، والفيسيسae الرخامية، والتواوفذ الجصية (الشمسيات)<sup>٧٣٩</sup>.

إذن، طراز عمارة هذه المجموعة عثماني صرف<sup>٧٤٠</sup>.

#### ج. مجمع السنانية:

أنشأه الوالي (ستان باشا) عام ١٥٩٥هـ / ١٩٩٥م، ويقع غير بعيد عن مجمع الدرويشية في المحلة المعروفة بـ(السنانية)، عند باب الجابية القديم<sup>٧٤١</sup>، وهو على شاكلة مجمع الدرويشية، لا يختلف عنه كثيراً في الفن المعماري من حيث التصميم والعناصر المعمارية والزخرفية، سوى أن مئذنته

٧٣٧- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٤٩٩.

٧٣٨- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص/٢٠٩.

٧٣٩- الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٥٠٠.

٧٤٠- البهنسى، المرجع السابق، ج ١، ص/٢٠٩.

٧٤١- الريحاوى، المرجع السابق، ص/٥٠١، ٥٠٢.

الريحاوى، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٢٢٦.

الأسطوانية تتميز بكسوتها الخارجية المكونة من لواح الفاشاني لونها الأزرق الفيروزي، أما الحرم فعني بالزخارف<sup>٧٤٢</sup>.

#### د. قصر العظم:

كان هذا البناء المشهور — والمستعمل حالياً متحفاً للتراث والفنون الشعبية — قصراً لولي دمشق (أسعد باشا العظم)، بُني عام ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م<sup>٧٤٣</sup>، وقد أتفق (أسعد باشا) على بنائه أموالاً كثيرة، ولعله جَمَعَ بعض عناصر بنائه من أطلال أبنية دمشق آنذاك<sup>٧٤٤</sup>، ويمثل أرقى ما وصل إليه البيت العربي الإسلامي من التطور والرقي؛ من حيث التصميم الذي يُوفِّر الوسائل التي تتطلبه البيئة الاجتماعية والمدنية، ومن حيث العناية بالعناصر المعمارية والزخرفية، وقد أُنشئ في قلب المدينة في الجهة الجنوبية من الجامع الأموي، أي في المنطقة التي كان يحتلها قصر الخضراء، قصر الخليفة الأموي الأول (معاوية بن أبي سفيان)<sup>٧٤٥</sup>.

يتَّأْلَفُ القصر من (٣) أجنحة، أكبرها يُطلق عليه (الحرملك)، أي جناح الإسراء، ويليه (السلاملك)، أي جناح استقبال الضيوف، والثالث يُبَنِّ صغيراً مخصص للخدم، وهناك حمام يحتل مكاناً بين الحرملك والسلاملك، له تصميم مُدَنِّل لتصميم الحمامات العامة، وتدخل إلى القصر من بوابة تؤدي إلى ممر عريض مغطى بعقود مقاطعة، وعن يمينه مصطبة للجلوس، وعن يساره غرفة للحارس، ويؤدي هذا الممر إلى جناحي الحرملك والسلاملك<sup>٧٤٦</sup>.

والبناء في معظمِه مكون من طابقين من الغرف، باستثناء القاعات الكبيرة فإن ارتفاعها يعادل طابقين، والوحدات كلها في ثلاثة الأجنحة تُطلُّ على الأفنية بأبوابها وشبابيكها ونوافذها، وأكبرها قاعة الحرملك الذي تزيد مساحته عن ثلثي مساحة القصر، ويُلْحِقُ به قسم الخدم وإسطبل الخيل والعربات في الزاوية الشمالية الغربية، وتمتد أمامه بركة طويلة شبيهة ببركة جنة العريف في غرناطة<sup>٧٤٧</sup>، وهناك التوابير، ورواق من (٥) قنطر يتقادم مجموعة من الغرف، وأيوان يتوسط مجموعة غرف أخرى.

وتحتل القاعة الكبيرة مكاناً مهماً في الحرملك، وترتفع — خلافاً لسائر الغرف — عن أرض الفناء؛ إذ يُصعد إليها سلم حجري من عدة درجات، ويلاحظ أن تصميم القاعة شبيه بالمدرسة ذات الصحن المسوغ في العهد السلجوقي، ففي الوسط عتبة واسعة بمنزلة الفناء تحتوي على بركة ماء، فوقها سقف مرتفع مزود بالنوافذ، يقوم مقام القبة أو المنور، وعلى جوانب العتبة (٣) أيوانات ترتفع عنها بمقدار

٧٤٢- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٢٩١.

٧٤٣- الريحاوى، المرجع السابق، ص ٢٢٧.

٧٤٤- البهنسى، المرجع السابق، ج آ، ص ٣٦٩.

٧٤٥- الريحاوى، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص ٨، ٥٠٨.

٧٤٦- البهنسى، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٦٩.

٧٤٧- المرجع السابق نفسه، ج ٢، ص ٣٦٩.

درجة تؤدي إلى عدد من الغرف<sup>٧٤٨</sup>، وكثيراً في البيوت العربية تتميز القاعة بعناصرها الفنية والزخرفية التي تتمثل في الخشب، أو ما يسمى (الحلقة العجمية)، والذي يزدان بالرسوم والألوان وأعمال التذهيب، وتكتسي به الجدران والسقف، وبالرخام الملون، وهناك الفسيفساء الرخامية التي نجدها في بلاط الأرض، وفي البرك والفالق والمدافئ الجدارية أحياناً، وكذا هي الحال في معظم القاعات<sup>٧٤٩</sup>، ونلاحظ في الواجهات المطلة على الصحن جراناً ترتيبها المداميك المتباينة الألوان، وتختلفها الحليات المعمارية وفتحات الغرف والقاعات المؤلفة من الشبابيك في الأسفل والنواذف في الأعلى، مع اختلاف في ارتفاع الواجهات من مكان إلى آخر، مما ينفي الرتابة عن المنظور الأنفي للوحدات<sup>٧٥٠</sup>.

والحمام أنموذج لحمامات القصور الدمشقية والدور الخاصة، ويعد من الحمامات التي حافظت على رونقها وطابعها ومكوناتها من دون إلمساس بأي جانب منها، وقد حولت المديرية العامة للآثار والمتاحف هذا الحمام إلى متحف شعبي جزءاً من متحف "التقاليد الشعبية في قصر العظم"، وهو بطبيعة الحال يُشكل جانباً من الجناح الجنوبي للقصر، وقد عده (إيكوشار) في زمرة حمامات القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين<sup>٧٥١</sup>.

يدخل إلى البراني من باب فوقه قوس، وهذا البراني على شكل بهو مربع، في وسطه بحرة مثمنة الأضلاع منخفضة الجوانب، وهي من الرخام المشق البديع، وفي وسطها كأس من الممر، وحول البحرة مرجأة خاصة حولها إطار مبطّن من الحجر الوردي تحيط به تربيعات من الرخام المحتلي بالأسود، وفي الزاويتين الجنوبيّة الشرقيّة والشماليّة الغربيّة دائرتان من الرخام تحيط بكل منهما تشكيلة من الحجر الأسود، أما في الزاويتين الشماليّة الشرقيّة والجنوبيّة الغربية فقطعة رخامية مثمنة الأضلاع تحيط بها الحجر الأسود، وفوق هذا القسم قبة ذات رقبة تحيط بها (٨) نوافذ، وتنسند القبة إلى أربعة أقواس مزخرفة برسوم هندسية عربية التكوين تتكرر متاظرة على طرفي القوس، وهذه الأقواس تتلاقى على دعامتين في الجنوب، وتندمجان بالجدران في الشمال، ويكون اتصال القوس بالدعامة بواسطة سعادين متبعين بتجانين تستند نهاية القوس إليهما، والتجان المذكوران مزخرفان برسوم ثاقفة، ويرتكزان على حجر منقوش بزخارف متاظرة، وفي صدر البراني (الجنوب) إيوان مفروش بالسجاد، وأمام جداره الشرقي مصتبة من الخشب المحفور مجللة بالمناشف، وضع عليها تمثال شخص انتهى من الاستحمام ولملف بالمناشف، وأمامه (قبقاب شبراوي)، وهذا التمثال يمثل المستحم وهو يخرج بالمناشف إلى البراني، فيستريح عقب الانتهاء من الاستحمام<sup>٧٥٢</sup>، وفي صدر هذا الإيوان أيضاً نصب (بيرو) من الخشب المدعي.

٧٤٨- الريحاوي، قم عالمية في تراث الحضارة العربية الإسلامية المعماري والفنى، ج ٢، ص/٦٣٢.

٧٤٩- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٥١٠، ٥١١.

٧٥٠- المرجع السابق نفسه، ص/٥١١.

٧٥١- Ecochard, M., *Les Bains de Damas*, 2 vol., Beirouth, 1942, p/55.

٧٥٢- كيل، الحمامات الدمشقية، ص/١٠٣.

المطعم، وفوقه مرآة يحيط بها إطار له تاج من النوع نفسه، أما الجدران فمزينة بالجمي المطعم، ويختلف ذلك شريط كتابي، وقد زينت الجدران في الأعلى بلوحات كتب عليها: «وَمَا يَكُمْ مِنْ نِعْصَةٍ فِيمَنْ أَنْشَأَ»، و«الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، و((إله - محمد))، وفي هذا الإيوان (٤) أقواس تتناثر كالعقد، وهي مزينة برسوم جصية نافرة، وفي مركز تلك الأقواس المتلاقي ما يشبه القبة الصغيرة، وهي على شكل أضلاع محرزة بحزوز تتناثر في المركز، وتتفصل هذه القبة عن قبة البراني بالقوس الجنوبي لقبته، وتجرد الإشارة إلى الصندوق الذي بمحاذة الجدار الشرقي، وبجانب المدخل إلى الوسطاني، وهو صندوق مصنف ومنزل بالعظم والقصدير من نوع المصري على شكل عروق نباتية وورود، كما نشير أيضاً إلى الخزانتين (الجامبين) البالوريتين المعروض فيهما أتموجات شمينة فاخرة من المناشف، وهي معاشرة بثذهب والفضة على شكل عروق وأزهار في زهريات، ويتم الدخول من الباب «شبور انقا» - في الجدار الشرقي للبراني - إلى مجاز يتفرع إلى الشمال والجنوب، في السفن مرحاض ومقصورة للنورة، وفوق كل منها قبة نصف أسطوانية (جلونة) فيها قمريات، وفي الجنوب بحرة صغيرة، وأرض ذلك المجاز مرصوفة بالحجر الوردي والأسود، وفي الشرق - هليز فوقه قبة نصف أسطوانية في صدره (مشهد) به جرة مياه الشرب.

وإلى الشمال سدخل يؤدي إلى الوسطاني الأول، وهو بهو رباعي الشكل فوقه قبة متلاقيه السفوح، وفي «الطراف» الدنيا للقبة المذكورة مقرنصات جصية نافرة، وفي أسفلها تزيينات جصية على شكل زنبق، ويقسم هذا الوسطاني إلى قسمين:

- أولهما يسمى (العتبة)، وهو ممر أرضه مبلطة ببروب من الرخام والحجر الأسود والوردي، وفي الوسط حشوة من الحجر الوردي.

- والثاني يسمى (الإيوان)، يرقى إليه بدرجة، وقد انتظمت على أطرافه الشرقية والغربية المصاطب، وعلى المسطبة الغربية تمثال شخص يستريح وفي قدميه (قبقاب شبراوي) عال، وقد لفَ بالمناشف، وإلى جانبه منضدة صغيرة (طربزة) من الخشب المحفور المنزل بالصدف على شكل زهارات صغيرات، وفوق الطربزة مرآة لها جارور (ترجم) من الخشب المصطف.

وفي منتصف الجدار الشمالي مصب من الرخام المشق الجميل في أعلى مقرنصات نافرة بديعة، وتنساقط من أعلى المصب المذكور المياه إلى فسقية نادرة من المرمر، وفي هذه الفسقية فوهات تنطلق منها المياه على شكل نافورة متشامخة أخذاء، أما أرض الإيوان فمباطنة بالرخام المشق البديع<sup>٧٢</sup>، وفي الجدار الشرقي للوسطاني الأول باب فوقه قوس من الحجر الوردي والأسود، ندخل منه إلى الوسطاني الثاني.

والوسطاني الثاني يشكل ردهة مربعة ذات قبة مزينة بالجص على شكل محارب، وفي الزوايا تأخذ التزيينات شكل نقش نافرة، والأرض مبلطة بخشوة مضلعة من الحجر الوردي، في مركزها تربعة من الرخام الأبيض يحيط بها الحجر الأسود، فدرب من الرخام، ثم من الحجر الأجري الصقيل، ثم درب آخر

. ٧٥٣ - المرجع السابق نفسه، ص/٤، ١٠٤، ١٠٧.

من الرخام، وفي الشمال باب يؤدي إلى مرحاض ومقصورة – ذكرًا آنفًا –، وإلى جانبه جرنٌ رخامي فوقه رخامة مقوية بأنبوبين من النحاس الأصفر، أحدهما للماء البارد، والآخر للماء الحار، ويقابلة في الجنوب جرنٌ آخر منظر له، إلا أنه من الحجر الأبيض، وفوقه مشجب، وإلى جانبه مصطبة، وفي الجدار الشرقي مدخل فوقه قوسٌ من الحجر الوردي يؤدي إلى الجواني.

وتطلّ الجواني قبتان تفصل بينهما قوس يرتكز على دعائم جانبية، القبة الأولى رباعية ذات سفوح متلاصقة، وفي بداية تلك السفوح مقرنصات جميلة، والأرض تحت هذه القبة مبلطة بالحجر الأسود والوردي على شكل أربع دوائر من الحجر الوردي يحيط بها ميلٌ من الحجر الأسود، وقطعٌ رخامية بيضاء، ثم دروب من الرخام والحجر المشق حتى الجدران، وفي جانب الجدار الشرقي جرنٌ رخامي بيضوي أنيق ذو نقوش نافرة لأذْهار وعروق نباتية متناظرة (الشكل ٣٥١)، وفوق ذلك الجرن رخامة منقوشة مقوية بتقبعين خرج منها أنبوبان من النحاس للماءين البارد والحار، وإلى جانبها تثبت خزانة معروض فيها ألمونوجات من الصابون وعدة الحمام (الليفة، الكيس، الترابية الطبلية)، وفي الجنوب جرنٌ رخامي آخر مضلع فوقه رخامة تشبه رخامة الجرن الشرقي المذكورة بنقوشها ووظيفتها، وفي أعلىها مشجب، وفي الجدار الشرقي والغربي (٤) كتبيات ذات أطْرَ منقوشة بالجص النافر، كانت تستعمل كما يبدو لوضع السرج عليها لإنارة الجواني، وتتفصل القبة الثانية عن القبة الأولى بقوس، مما يشكّل إيواناً على طرفه مقصورتان، وهذه القبة ذات سفوح متلاصقة أيضًا، وهي ذات مقرنصات جميلة، وفي أسفلها رسوم جصية نافرة، وأرض هذا الإيوان تشكّل حشوة من الرخام المشق يحيط بها درب من الحجر الوردي، ثم إطار رفيع من الرخام، ثم ميلٌ آجري، يليه دربٌ رخامي، وقد وضع في وسط الإيوان تمثال ريس الحمام يقوم بعملية التكيس (التفريك)، وإلى جانب من الجدار الشرقي كرسى الرئيس وطاسته، وخلفهما جرنٌ، وإلى الشرق مدخل مقصورة ذات جرنين، فوقها قبة مستديرة ذات مقرنصات أصابعها تشوّيه، وقد جُهد في أثاء ترميمها لإعادتها إلى ما كانت عليه، وفي أرض هذه المقصورة حشوة دائيرية من الحجر الوردي يحيط بها ميلٌ أسود، ثم تشكيلة من الرخام الأسود، وفي جدار المقصورة الجنوبي (خلف حل الماء) كتابة كانت مسدودة؛ لستعمل مغطساً، وفي الجدار الغربي من الإيوان مدخل مقصورة مقابلة ذات قبة جميلة جداً بمقرنصاتها، وفيها جرنان، وأرضها من الرخام والحجر الأسود والوردي<sup>٤</sup>. الشكل (١٩٢، ١٩٣) (١٩٢، ١٩٣).

هـ. خان أسعد باشا العظم:

ما تزال في أسواق دمشق القديمة خانات عدة من العصر العثماني، شيدت في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، إلا أن أهمها وأجملها الخان الذي أنشأه الوالي (أسعد باشا العظم) – أحد ولاة أسرة آل العظم – عام ١١٦٧هـ / ١٧٥٣م<sup>٥</sup>.

<sup>٤</sup> - كيل، الحمامات الدمشقية، ص ١٠٨، ١٠٩.

<sup>٥</sup> - الريحاوي، (عبد القادر)، خانات دمشق، مجلة الحوليات الأثرية، المجلد ٢٥، دمشق، ١٩٧٥، ص ٤٧، ٥٠.

٨٧

يقع هذا الخان في سوق البزورية المشهور، حيث باعة العطارة والسكاكير، إلى جانب حمام تاريخي أنشئ في عصر (نور الدين محمود)، وتبلغ مساحة هذا الخان (٢٥٠٠ م٢).<sup>٧٥٦</sup>

للخان صحن مربع مسقوف بـ(٤) قباب موزعة على (٣) صفوف تحملها (٤) عصائد تتوسط الصحن، وفي الوسط تنت القبة الوسطى بركرة مصلبة ذات (١٢) ضلعاً، وتقوم القباب بهمة إثارة الصحن لما في رقباتها من التوافذ، وما في قفتها من المناور<sup>٧٥٧</sup>، ويلاحظ أن (٣) من القباب ذهب التسقيف عنها، وغطيت بسقف جلوني، وتقول بعض الروايات إنها لم تكتمل أصلاً.<sup>٧٥٨</sup>

ولهذا الخان بوابة فخمة على شكل إيوان معمود بالمقرنصات الحجرية، ضمن قنطرة مؤلفة من عقود متراكبة من أحجار متشابكة مستندة بلومنين أبيض وأسود متناوبين على أعمدة صغيرة، وبزيتين وأجهتها محرابان صغيران، وفوق البوابة نافذتان، وعلى جانبي القوس من الأعلى نوافذ مستطيلة، ومن الأسفل فتحتان مزدوجتان بفسقتيين، ويلي البوابة دهليز عريض يستوعب غرفتين للحراسة ينتهي إلى الصحن، مسقوف بالقباء المتقطعة، وعلى جانبيه درجان إلى الطابق العلوي.<sup>٧٥٩</sup>

ويحيط بالصحن واجهات لطابقين من الغرف، تكسوها مداميك ملونة بالتناوب بين الأبيض والأسود، وكذا يشمل التناوب العقود الحاملة للقباب، ويتألف هذا الخان من طابقين، يحوي الطابق الأرضي مخازن تجارية واسعة عددها (٢١) مخزناً يتتألف كل منها من قسمين:

- الأمامي فيه غرفة مزودة بنوافذ وشبابيك على الصحن.
- والخلفي لخزن البضائع.

وفي أيضاً المسجد في القسم الشمالي الغربي، وله باب مفتوح على السوق، وتقع دورات المياه في ركن داخلي غير ظاهر.<sup>٧٦٠</sup>

أما الطابق العلوي فيتألف من سلسلة من الغرف الصغيرة ينقدمها رواق يطل على الصحن بقنطر ودرابزينات، وقد خصمت هذه الغرف في الأصل لنزول التجار.

وقد زُوِّدت دراجن الخان الخارجية في جهتي الشرقية والجنوبية بالدكاكين أيضاً جزءاً من الأسواق المجاورة للخان.

ثم إن واجهة هذا الخان ومشهد الداخلي يثيران الإعجاب بروعة الزخرفة والتنسيق اللوني، مع دراسة رائعة للفضاء الداخلي.<sup>٧٦١</sup> الشكل (١٩٤).

٧٥٦- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٤٥٠.

٧٥٧- المرجع السابق نفسه، ص/٥٠٤، ٥٠٥.

٧٥٨- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج، ١، ص/٣٦.

٧٥٩- الريحاوي، خلات دمشق، ص/٥١، ٦٠.

٧٦٠- البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج، ١، ص/٣٦.

## ٤. العمارة العثمانية في حلب:

كانت مدينة حلب مركزاً اقتصادياً مهماً في العهد العثماني، ازدهرت فيها الحركة العمرانية، وتوسعت حدود المدينة، وظهرت فيها أحياe جديدة، وحفلت بالمساجد الكبيرة والصغيرة، وبالأسواق والخانات، وبالحمامات والمدارس والبيوت الفخمة الواسعة التي تتمثل نهاية تطور البيت العربي الإسلامي<sup>٧٦١</sup>، على أن مما يميز حلب - كونها مركزاً اقتصادياً مهماً - مجموعة كبيرة من الخانات موزعة ضمن شبكة أسواق المدينة، وبعضها موزع خارجها بين الأحياء السكنية، ولا سيما تلك التي تختص بالصناعات، والتي يطلق عليها غالباً (القيساريات)، وأسواق حلب شهير بكونها مغطاة بقباء عالية من الحجر، مزودة بطاولات مربعة الشكل؛ لإمداد السوق بالنور، ويخلل قباء السقف أحياناً قباب عند التقاطع. ومن أهم المساجد في حلب:

### أ. مجمع الخسروية:

لهذا الجامع أهمية خاصة؛ لكونه أول مسجد يُشيد وفق الفن العثماني في سوريا، ولأنه من تصميم المهندس المشهور (ستان باشا)، وهو من طلائع أعماله<sup>٧٦٢</sup>، أمره ببنائه الوزير (خسرو باشا) حين كان والياً على حلب عام ١٥٣٧هـ / ١٩٤٦م، في عهد السلطان (سلیمان)، ويبعد أن عمارته اكتملت بعد ولادته؛ لوجود كتابة تُورّخ الانتهاء من البناء عام ١٥٤٦هـ / ١٩٥٢م.

يقع الجامع قريباً من باب القلعة، وهو أشبه بالتكية؛ لاحتواه على: مدرسة، ومسجد، ومطبخ، وغرف للسكن، وقاعة للدرس، مع حمامات غير مترابطة مع جسم المسجد الذي يهيمنا على هذه المجموعة المعمارية<sup>٧٦٣</sup>.

ويقوم تحيط المسجد ذي القاعة الكبيرة المنسقوفة بقبة وحيدة على مخطط حرف (T) المقلوب، مع قبة صغيرة في الأركان الخلفية عند الرواق الذي ينتدمها، والمؤلف من (٥) قباب؛ بقصد زيادة المساحة في كلا الجانبين، وترتفع المئذنة عن يمين المبني. ويتميز فناء المسجد بشكله المستطيل<sup>٧٦٤</sup>. ويتألف حرم المسجد من قاعة أبعادها (١٦×٢١م)، مزينة بالاشاني، وقامت المئذنة العثمانية الرشيقية إلى الجهة الشمالية الغربية، ويتقدم الحرم الرواق المنسقوف بـ(٥) قباب، ويحمي الباب المبني من الحجارة الملونة، عليه كتابة تذكر اسم الوزير (خسرو باشا) مع تاريخه ١٥٤٦هـ / ١٩٥٢م.

٧٦١ - جوشقون، (يانوز)، نقسي خط الدولة العثمانية في حلب، مشروع (جريدة الآثار التاريخية المنشأة والمرئية في الفترة العثمانية في حلب)، يجري هذا المشروع ضمن إطار برنامج التعاون الإقليمي السوري التركي، الذي تم تمويله من قبل مستشارية هيئة تحطيط الدولة التابعة لرئاسة مجلس الوزراء، جامعة غازى عنتاب، ٢٠١٠، ص. ٧.

٧٦٢ - البهنسى، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٠٠.

٧٦٣ - طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية في حلب، ص ١٠٣.

٧٦٤ - عثمان، (نجوى)، مساجد حلب، معهد التراث العلمي ، حلب، ١٩٩٢، ص ٩٩.

٧٦٥ - البهنسى، موسوعة التراث المعماري، ج ١، ص ٢٠١.

بـ. جامع العادلية:

شيد في محلة السفاحية حنوب القلعة، وغير بعيد عن مجمع الخسروية، في عهد الوالي (محمود باشا) عام ١٥٥٥هـ / ١٩٦٣م.

يتتألف من صحن فيه بركة ماء يعلوها شاذروان وقاعة للصلوة مربعة ضلعها (٢٣م) مسقوفة بقبة واحدة مقلطحة يتقدمها رواق مزدوج مرتفع، والحرم مزخرف بالقاشاني، والصحن فيه رواقان بقبتين، وللمسجد مئذنة واحدة على شاكلة مآذن العصر العثماني من حيث الشكل، أما البوابة فمفتوحة ضمن إيوان ذي عقد نصف دائري ومعقود بالمقرنصات.<sup>٧٦٦</sup>

جـ. جامع ال بهرمية:

شيد في منطقة أسوق المدينة، بمحاذاة محلة الجلوم من المدينة القديمة، في عهد الوالي (بهرام باشا)، عام ١٥٨٠هـ / ٢٢١م، وبتشبيه في تصميمه التكابي؛ لأن صحته محاط بغرف صغيرة يتقدمها رواق، أما قاعة الصلاة فمربعة ومسقوفة بقبة وحيدة، إذ أن محرابها وضع ضمن إيوان يبرز نحو الخارج<sup>٧٦٧</sup>، وهذا يُعد اختلافاً في التخطيط عن غيره من المساجد العثمانية<sup>٧٦٨</sup>؛ إذ إن قاعة الصلاة مسقوفة بقبة وحيدة يتقدمها رواق من (٣) قباب، وعلى جانبي المسجد إيوانان ضمّ أحدهما إلى قاعة الصلاة حديثاً (الشكل ٢٦٢)، ويتوسط صحن المدرسة بركة ماء مربعة، ويحيط به رواق على أعمدة وقناطر متعددة وراءه حجرات السكن التي تقارب (٤٠) غرفة، وللمسجد مئذنة وحيدة أسطوانية على شاكلة المآذن العثمانية، أقيمت في الركن الشمالي الغربي (الشكل ٢٦٣)، وما زال البناء في حال جيدة، إلا أن القطاع الشمالي أُزيل منذ بضع سنين؛ من أجل توسيعة الشارع المجاور.<sup>٧٦٩</sup> وقد استخدم القاشاني في زخرفة قاعة الصلاة، وهناك لوحة على شكل نصف دائرة، فيها زخارف نباتية وهندسية وكتابية.

دـ. خان الوزير:

يقع في سويقة على، في اتجاه باب الفرج، إلى الشمال الغربي من قلعة حلب، وشرق الجامع الكبير، أي بين القلعة والجامع، ويُعرف بـ(خان الوزير) نسبة إلى الوالي والوزير العثماني (قره مصطفى) الذي شيده عام ١٦٨٢هـ / ١٩٣١م.

ويُعد خان الوزير أحد أضخم الخانات في حلب والعالم الإسلامي، تبلغ مساحته حوالي (٤٥٠٠م<sup>٢</sup>)، ويمتاز بعناصره المعمارية والزخرفية.<sup>٧٧٠</sup>

٧٦٦- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٥١٧.

٧٦٧- البهنسى، المرجع السابق، ج٢، ص/٣٦٠.

٧٦٨- الريحاوي، العمارة في الحضارة الإسلامية، ص/٥١٣.

٧٦٩- الريحاوي، العمارة العربية الإسلامية خصائصها وأثارها في سوريا، ص/٤٣١.

٧٧٠- عثمان، مساجد حلب، ص/١٠٣.

٧٧١- الأسدى، أحياء حلب وأسواقها، ص/١٩٠.

